النفس

من المهد إلى اللحد

دكتور

محمد شعلان

أستاذ الطب النفسي

جامعة الأزهر

طبعة ثانية

النفس من المهد إلى اللحد

دكتور

محمد شعلان

أستاذ الطب النفسى

جامعة الأزهر

طبعة ثانية

الناشر: الجمعية العلمية المصرية للتدريب الجماعى

٤٤ شارع القصر العينى ت: ٣٥٥١١٧٣

توزيع مكتب الأعناب، ناصية شارع عبد الحميد لطفى بالمهندسين

تليفون وفاكس ٣٦١٤١٣٣

اعتراف وتعريف

إلى أساتذتى الذين استمعوا إلى بقدر ما أسمعونى من علمهم فعلمونى المبادرة والبحثوالتجديد...

وتلاميذى الذين أسمعونى بقدر ما استمعوا إلى ما لدى فعلمونى كيف أقول ما أريد أن أقوله.

أساتذة امتدوا رأسيا ليشملوا بعض فطاحل العلم وأفقيا ليشملوا البسطاء المتخفين وسط صفوف الجماهير الكادحة، وتلاميذ امتدوا رأسيا ليشملوا بعض من علمونى وامتدوا أفقيا ليشملوا أطفالى بما اختزنوا من علم توارثوه فى كيانهم على مر العصور.

لهؤلاء أعترف بالفضل فى ميلاد هذا الكتاب. وتعريفى له أن محاولة لفهم الاضطراب النفسى ومن خلاله التعرف على الصحة، ولفهم الطفل ومن خلاله فهم الراشد الذى يؤثر عليه ويتأثر به ويمتد ليكون المجتمع المحيط بالطفل الذى هو امتداد لتاريخ الانسان بل والحياة والوجود. فاذا كنا من خلال الجزء نرى أصداء الكل فإننا بدون الكل لا نستطيع فهم الجزء، واذا كان هدف المعرفة الكلية صعب المنال فان الصعوبة لا تبرر عدم المحاولة، والمحاولة من حيث هى خطوة على الطريق فهى مجرد خطوة ولا غنى لها عن خطوات تتلوها أو تصحح مسارها.

لقد تطور هذا الكتاب هكذا من خلال تفاعلى مع طلاب علم النفس بكلية آداب عين شمس، وكان خوفى من قتل تطوره بوضعه فى صيغة مكتوبة يجعلنى أتردد فى كتابته،

ألا أن خوفى من أن تتبدد كل خطوة بالخطوة التى تتلوها جعلنى أجازف بكتابته، ولعل الاعتراف بانه خطوة فى مسار متطور يجعلنى أتحمل أى نقد وأتواضع لأى مديح. فالتطور حتمى وليس أمامنا الا أن نقبله فنسير معه، أو نرفضه فنتحجر ونموت. وسيان بعد ذلك من الذى يطور هذه المحاولة : الكاتب أم القارئ. فاذ كان الأول أسعدنى أن أصحح نفسى واذا كان الأخير أسعدنى أن هناك من حمل عنى الشعلة لكى أنتقل بالتالى لعمل آخر.

أعترف بالفضل وأعرف من يتقبل أن يتسلم منى النتيجة بعبء الرسالة، رسالة الاستمرار والتطوير.

اعتراف وتعريف من الذى كتب هذا الكتاب على يديه.

محمد شعلان

الفصل الأول

مفاهيم عامة

اختيار المرض

« فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون » (١).

يتحدث الطبيب النفسى سيلفانو آريتى Silvano Arieti عن مبدأ النكوص الغائى المتزايد Progressive teleologic regression فى محاولة لفهم أسس جنون الفصام. ويعنى هذا المبدأ أن النكوص فى الفصام هو وسيلة تكييف، ولذلك فهو نكوص هادف. فالمريض اذا ما واجه صعوبة فى التكيف لجأ إلى النكوص كوسيلة لحماية نفسه من الموقف. وبدلا من مجابهة معركته التكيفية فهو يتراجع إلى الخلف ويمارس وجوده على مستوى أكثر بدائية ويعود إلى حالة تطور نفسى مبكرة. وهو يفعل ذلك بهدف التكيف مع الموقف. الا أن النكوص يحد من قدرته على المجابهة. وحيث أن مريض الفصام يكون قليل الحيلة بادئ ذى بدء – اذ أن هذا التصور ذاته هو الذى جعله يلجأ إلى النكوص كحيلة بدائية فى المقام الأول – فهو بالتالى لا يجد أمامه الا المزيد من النكوص. ويدخل فى حلقة مفرغة. ولذلك وصف آريتى هذا النكوص بأنه متزايد. فالمريض كلما فشل عاد إلى الخلف وكلما عاد إلى الخلف زاد فشله مما يجعله يستمر فى العودة إلى الخلف. وهذه الآية القرآنية وان كانت تبدو لأول وهلة كما لو كانت تتعارض مع الموقف الطبى التقليدى، وهو الموقف

---

(١) سورة البقرة

الذى يجعل المريض أكثر استحقاقا للعلاج وأحوج إلى التخليص بالصحة وليس إلى المزيد من المرض، الا أن الآية تحوى فى نفس الوقت درجة من احترام لارادة الانسان وحريته، فالمرض فى بدايته اختيار، والاختيار ملازم للحرية، والإنسان خلقه الله لطاعته فقد اعطاه فى الوقت ذاته القدرة على العصيان ومخالفة أمره. الا أنه وهو يخالف امر الله باختياره سبيل المرض فانه يدفع الثمن بان يزداد مرضا. ويؤكد هذا المعنى حديث شريف وهو :

«ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»

وفى أسطورة أوديب اليونانية يرتكب البطل جريمته وهو لا يعى جرمها ولكنه مع هذا يدفع الثمن كما لو كان واعيا مختارا. وكأنه تطبيق للمبدأ القائل بأن الجهل بالقانون لا يبرر الجريمة. وعلى نفس المنوال فان آلام المريض هى الثمن والعقاب الذى ندفعه لاختيارنا سبيل المرض. واعتذارنا بالمرض لن يخفف من حدة ألم الثمن.

قد يقبل البعض هذا التفسير بالنسبة للأمراض النفسية ولكن ما بال الأمراض العضوية، حيث اكتشف العلم أسبابا مادية ملموسة لها ؟ أين يقع الاختيار هنا ؟ ولماذا العقاب على ذنب ليس للانسان فيه دخل ؟ نجد هنا أن الأسباب العضوية ليست الا أحد العوامل العديدة التى تفسر لنا ظواهر المرض. ولعل أبسط مثال هو مرض الزكام المنتشر، فاننا نعلم أن الزكام سببه فيروس منتشر فى الجو خاصة فى وجود مريض يحمل العدوى وينشرها حوله. الا ان المعرضين لهذا الفيروس كثيرون والذين يصابون قلة. الغالبية تقاوم الفيروس ولا تمرض. وهنا سنضطر إلى البحث عن عوامل أخرى عدا العوامل العضوية (مثلا كثافة الفيروس وحالة مناعة الجسم عند دخول الفيروس اليه، والحالة النفسية المؤثرة على المناعة).

ولكننا نحتار مرة أخرى. ولا نجد مفرا من الاعتراف بأن الحالة المعنوية أو النفسية التى يكون عليها الفرد ابان تعرضه للفيروس أو قبلها أو بعدها بقليل تتحكم فى قدرة الجسم على مقاومة الفيروس أو الرضوخ له. الا أن هناك أمراضا أخرى غير الأمراض المعدية أخذت تتكاثر وهى ما تعرف الآن بأمراض الحضارة وأهمها تصلب الشرايين وما يترتب عليه من أمراض فى القلب والجهاز العصبى وأمراض التنفس وأمراض المفاصل وأمراض الحساسية والأمراض الجلدية. وكل هذه الأمراض لا نستطيع حتى الآن أن نحدد لها عاملا فاصلا مثل الجرثومة أو الفيروس. وهنا مرة أخرى نرى ارتباطات بين انتشار هذه الأمراض والحالات النفسية لهؤلاء الأفراد والتى تأخذ أحيانا صورة الوباء النفسى، أى المرض النفسى الذى يصيب حضارة بأكملها. بل أن بعض الأمراض التى قد تبدو لأول وهلة بلا علاقة بالصحة النفسية مثل السرطان قد وجد ارتباط ما بين انتشارها أو سرعة تطورها وبين العوامل النفسية للفرد المصاب. وهنا مرة أخرى نستطيع أن نرى كيف يدخل فى المرض العضوى عنصر الاختيار. فالانسان يختار طريقته فى الحياة ولذلك مسئول بطريقة أو أخرى عما يحدث له، ويدفع ثمن اختياره بأن يمرض ويزداد مرضا.

قد يبدو أن فكرة حرية الاختيار فى المرض فيها من القسوة على المريض ما قد يتنافى مع روح الطب والعلاج علاوة على ما قد توحى به من تشاؤم. الا أن العكس هو الأصح فان الذى يختار المرض بحرية يستطيع، اذا وعى حرية اختياره بواسطة العلاج النفسى مثلا، ان يعيد الاختيار ويختار الصحة.

الطفل وحرية الاختيار :

ولكن اذا كان هذا الكلام ينطبق على الكبار فما ذنب الصغار ؟ ان الصغار هم عادة الطرف الأضعف فى العلاقة مع الكبار. فطفل الانسان عاجز بيولوجيا ويحتاج إلى الاعتماد العضوى على أبويه لكى يعيش، فهو لا يستطيع أن يطعم نفسه أو يحمى نفسه من المخاطر الا بواسطة الكبار وهو لهذا تحت رحمتهم واختياره محدود. فكيف اذن يتحمل نتائج اخطاء أبويه ؟ فى الواقع ان الطفل يتمتع بقدر من التلقائية والقرب من طبيعته التى تجعل مشاعره وسلوكه أصدق من مشاعر أبويه. الا أنه بصفته الطرف الأضعف فى العلاقة فهو يقتل هذه البراءة والتلقائية ويبيع نفسه لكى يتجنب شر الكبار ويسعى إلى ارضائهم، وبقتل هذه التلقائية فهو يرتكب أول مخالفة لاحساسه الصادق، أى أول عصيان، ولعله هنا يكرر خبرة آدم فى أكله من الثمرة المحرمة. ان الطفل بهذا العمل قد مارس حريته وهى حرية الخطأ ويظل يدفع ثمن الخطيئة بقية عمره وهذه الخطيئة هى انه باع نفسه للكبار بأن تركهم يفرضون عليه ما يخالف طبيعته. وليس فى أمر حرية الاختيار عند الطفل كل هذه الغرابة فى ضوء ما يعايشه المرضى من خلال خبرات تحليلية عميقة أو حالات ذهانية مؤقتة وتحت تأثير العقاقير المهلوسة مثل L.S.D. 25 انهم فى هذه المعايشة يعودون إلى حالات مبكرة فى نموهم قد تصل إلى ما قبل الولادة وأثناءها ويتذكرون فى تلك اللحظة الصراع بين الرغبة فى البقاء فى سلام وأمن وحماية الرحم الذى يمثل فى الوقت ذاته حالة الموت. وبين الرغبة فى الخروج واستنشاق أول نفس للحياة وهى خبرة تحوى الاحساس بالارادة والاصرار. فهو يعى أن ما قد يبدو من الخارج كعملية فسيولوجية وطبيعية (كالتنفس مثلا) انما هى فى الأصل عملية اختيار وارادة. والكبار وهم يفعلون ذلك ازاء

ما بداخلهم من طفلية أو تلقائية انما يخفون التلقائية فى داخل أنفسهم ويقتلونها ولا يحتملون أى تذكرة أو ايقاظ لما بداخلهم كما تثيره تلقائية اطفالهم. فهم حين ينجحون فى هذا القتل، انما يدفعون الثمن ايضا بان يبقوا تلقائيتهم مقتولة كما أن أطفالهم، من حيث أنهم يستمرون فى الرضوخ لهذا القتل، انما هى أيضا فى توحدهم مع الكبار يساهمون أيضا فى قتل تلقائيتهم وكلاهما يدفع الثمن.

ان الطفل فى الانسان هو التلقائية وهو القلب النابض، هو الذى يرتكب ضده على مر العصور وفى شتى الحضارات جرائم القتل بصور مختلفة. واذا كان فى ذلك حكمة وهى أن الانسان كان ولا بد أن يدفع ثمن فقدانه لبراءته بأن يستمر فى قتل هذه التلقائية (فى قلبه مرض وزاده الله مرضا) الا ان صوت الطفل لا يموت بل انه ملازم له خافت تارة وصارخ تارة أخرى، يقتل ثم يولد من جديد ثم يقتل مرة أخرى ويولد وهكذا.

ان الطفل على مر العصور يطالب بحقه فى الحياة واذا كانت الظروف الدنيا حتى الآن قد فرضت على آدم العمل المضنى وقتل التلقائية فان التقدم العلمى الذى نتج عن هذا العمل المضنى قد فتح امام الانسان مجالا جديدا لان يعيد النظر فى حكمه على الطفل وان يفرج عنه أو يقلل من الحجر عليه. فبواسطة هذا التقدم التكنى أصبح من الممكن ألا يكون الانسان عبدا للعمل أو للآلة بل يستطيع ان يسخرها لخدمته بحيث يترك لها العمل المضنى وهو يتفرغ للحياة والتطور وأن يعيد لتلقائيته حق الظهور.

واذا كانت هناك حكمة تاريخية فى قتل الأطفال تتمثل فى أمر الله تعالى لابراهيم عليه السلام ان يذبح ابنه فان تكملة الحكمة هى ان الله قد أعفاه من هذه التضحية بأن جعله يقتل كبشا بدلا منه. فالانسان فى بداية تطوره الحضارى كان يطابق بين ما هو

طفلى وما هو حيوانى فقتل الاثنين معا فى سبيل الحضارة ثم أصبح قادرا على أن يفصل بين الاثنين واكتفى بقتل ما هو حيوانى فقط (الضحية) مبقيا بذلك على الحضارة بان وحد بين ما هو طفلى (الابن) وما هو حضارى (الأب).

واذا كانت حضارتنا ما زالت تسعى لتطبيق وتعميم القيم الخلقية التى جاء بها الأنبياء الأولون فاننا ما زلنا بطريقة رمزية نقتل أولادنا بدرجات متفاوتة. وذلك للابقاء على قدر من الحضارة وكبح الغرائز إلا أن التقدم المادى الذى نحن مقبلون عليه قد يحقق امكانية الافراج عن تلك الغرائز المكبوتة دون خوف يذكر على الحضارة وهو أن يجعلنا نستطيع ان نقول اننا مقبلون على عصر تحرر على عدة مستويات : فقد يعنى تحرير الضعيف من سيطرة القوى، والفقير من استغلال الغنى، والطفل من قتل الأب. ومن هنا ظهر الاهتمام فى العصر الحديث بصحة الطفل النفسية وظهرت حركات لتحرير الطفل Children's Liberation وحركات التحرير لكل ما هو مستضعف أو مقهور مثل تحرير المرأة Women's Liberation بل وتحرير المجانين Insane Liberation وغير ذلك من الحركات التحررية. وهى حركات لا تنفصل عن بعضها أو عن مثيلاتها على المستوى الاجتماعى بصفة عامة. فكثيرا ما تلتقى هذه الحركات مع حركات تحرير السود فى الولايات المتحدة وتحرير الفيتناميين من سيطرة الولايات المتحدة وتحرير الدول النامية من الدول الاستعمارية وتحرير الأمة العربية من تسلط الدول الكبرى وعملائها. هنا حقا يصدق القول بأن الحرية لا تتجزأ.

واذا كان هذا الكتاب مساهمة متواضعة فى هذا الاتجاه أى تحرير الطفل كجزء مكمل لمعركة التحرير بصفة عامة فانه لا ينبع من منطلق الدفاع عن الطفل من مركز

متعال أو موقف أبوى تجاه الطفل الضعيف المقهور انما ايمانا بأن الطفل والضعيف والمقهور والمظلوم هم جزء من الكيان الانسانى، والكيان الانسانى وحدة متكاملة لايجدى تحرير جزء منها أو اغفال جزء آخر، فالانسان طالما هو يستعبد أخاه الانسان - سواء كان ذلك طفلا أو امرأة أو دول نامية أو أقلية سوداء - فانما هو يستعبد جزءا من نفسه. انه بقبوله امكانية استعباده لآخر انما هو يقبل بالضرورة امكانية أن يكون هو المستعبد (بفتح الباء). الا انه بدلا من مواجهة هذه الحقيقة وحله لها حلا جذريا فهو كثيرا ما يلجأ إلى الحل القهرى بأن يبقى على طبيعة العلاقة كما هى - أى مستعبد ومستعبد أو سيد ومسود - مع محاولته ان يصل إلى المقعد الأعلى، اى أن يكون هو السيد وليس المسود. وهو هنا لم يحل المشكلة نفسيا أو عمليا. بل لم يفعل الا أن أنكر نفسه الجزء الضعيف وأسقطه على أخيه الانسان وقال عنه «هذا هو المسود وليس أنا» ونسى أن صفة السيادة هنا مرتبطة ارتباطا كليا بصفة العبودية. فهو لا يستطيع أن يكون سيدا الا لأنه جعل من غيره مسودا. وهو بهذا عبد لعبده بقدر ما يكون عبده عبدا له، وان كان انينه من هذه العبودية أقل مما هو الحال فى حالة ما لو كان هو العبد. وهو أمر كثيرا ما ينساه الثائر على الظلم حين يعتقد أن الظلم سببه الظالم وما عليه الا أن يقضى على الظالم حتى ينتهى الظلم وينسى الثائر أن الظالم أيضا يتألم ويدفع ثمن ظلمه بل ويتمنى فى دخيلة نفسه أن ينقذ من ظلمه.

اذن فالمنطلق الذى نبدأ منه هنا ليس ان الطفل مظلوم ازاء الكبير ولا أن حل التناقض هو أن يتخلص الطفل من سيطرة الكبير عليه فيعم السلام. ولكن المنطلق أن العلاقة الموجودة حاليا بين الطفل والكبير مع ما فيها من تناقض مؤلمة لكليهما وإن كانت صرخة الطفل - وهو الطرف الأضعف - هى الأعلى واحتياجه للمساندة هو

الأعظم.

وهنا يأتى دور المساهمة من جانب من يهتم بالصحة النفسية للأطفال من أطباء نفسيين وأطباء أطفال بصفة عامة واخصائيين نفسيين واخصائيين اجتماعيين ومدرسين وغيرهم ممن يعملون فى مجالات التربية والارشاد، بل وحتى رجال السياسة والاقتصاد. فاذا اعتبرنا ان علاقة الطفل بالراشد، أو الضعيف بالقوى، أو المظلوم بالظالم، أو ما شابه ذلك من علاقات، هى فى الواقع علاقات قوة، يكون فيها البقاء للاصلح (وقانون الصلاحية حتى اليوم هو قانون القوة أى البقاء للأقوى) فإن هناك من الأقوياء من يملكون درجة بعد النظر تجعلهم بحسبة عقلية يرون ان استمرار الوضع كما هو غير مجد ليس فقط من الناحية النفسية كما بينا ولكن من الناحية العملية. فالضعيف والمظلوم والمقهور هو فى النهاية مثل من ليس لديه شيء آخر يفقده. وهو لذلك أكثر حرية فى الحركة «الحرية هى الا يكون لديك شىء آخر تفقده». وأن هؤلاء بفضل ضعفهم وعددهم هم فى الأمد الطويل الأقوى والأبقى، ومهما طال صبرهم فان مآلهم إلى الثورة ضد هذا الوضع الظالم الذى يعانون منه. وهم وان كانوا شركاء فى الألم فى هذه العلاقة الثنائية بين القوى والضعيف الا أنهم يتحملون الجانب الأكبر من الألم وهم لهذا، لا محالة، أول من يثور وآخر من يكف عن الثورية، اذ ليس لديهم ما يخسرونه. هذه الفئة من الأقوياء ذوى النظر البعيد من المثقفين والعاملين فى المهن التربوية بجميع أوجههم الأقدر اذن على الوقوف بجانب الضعفاء فى ثورتهم، لا من منطلق العطف المتعالى فحسب، ولكن من موقع ندى وبدافع من المصالح المشتركة. اذ أن قوتهم تزداد بفضل مساندتهم للضعيف ازاء القوى رغم انتمائهم إلى الاقوياء. وهم اسوة برجال القانون أو الشرطة الذين ينتمون إلى الاقوياء ويدافعون عنهم ولكنهم

من جانب آخر يستمدون قوتهم من مساندتهم للضعفاء عادة ازاء جبروت الاقوياء وتجنبا لانفجار الضعفاء واخمادا لثوراتهم.

ان مسئولية هؤلاء العاملين فى حقول التربية والارشاد والسياسة هى فى مساندة الطفل ازاء الكبير تجنبا لانفجار الطفل. وهو موقف ذو حدين. فقد يكون مجرد مهادنة لثورة الطفل ومحاولة لاخمادها خدمة للقوى الغالبة. ومن جانب آخر قد يكون توجيها لهذه الثورة وتحويلا لها نحو منهج بناء فتصبح ثورة بدلا من مجرد تمرد. والفرق شاسع. فالثورة هى محاولة صادقة للتغيير الجذرى بينما التمرد هو محاولة براقة المظهر مصيرها الانطفاء.

وبما أن هذا كتاب علم وليس كتاب دعاية أو منهجا لثورة فان وظيفته هى إلقاء الأضواء ووصف الواقع واظهار الحقائق. ولكل قارئ حرية استخدامه للاتجاه الذى يختاره. وان كان هذا لا يعنى ان الكاتب كانسان غير ملتزم أو سلبى الموقف، ولكنه يسعى قدر المستطاع الا يخرج عن المنهج العلمى والموضوعية فى عرضه للحقائق. وهو اذ يشير إلى السياسة والدين – وكلاهما من المواضيع الحساسة – فان ذلك من منطلق منهجه ان الجزء لا يفهم الا من خلال الكل وان الارتباط بين جوانب الحياة المختلفة جذرى وان كل موقف ينبعث من فكر يشمل علاقته بالكون حيث يطرح التساؤلات الجذرية عن سبب وجوده وعن الخلق والخالق وعن الحياة والموت، وهى الأسئلة التى تحدد موقف صاحبها الدينى على حقيقته وكذلك فى كل موقف أو تعبير عن علاقة الفرد بالآخرين والتى تحكمها علاقات القوة والصراع وهى التساؤلات التى تعبر عن موقف صاحبها السياسى.

فالعالم مهما كان محايدا كعالم لا يستطيع ان يتنصل من موقفه كانسان ازاء

اللانهائى أى أن يكون له دين ولا من موقفه كانسان ازاء المجتمع أى أن يكون له موقفه السياسى. واذا استطاع لفترة ان يعزل نفسه عن الكون والمجتمع فى معمله ويتجنب السياسة والدين فانه سرعان ما يواجه الحقيقة وهى أنه لا مناص له من اتخاذ موقف حتى وان كان يتجنب رؤيته وتحمل مسئوليته عن كل ما يحدث له، حتى لو حاول أن يهرب من تلك المسئولية بتخفيه وراء دور العالم. واذا استطاع المجتمع الذى يستخدم هذا العالم لاغراضه بأن يعمى عينيه بالاغراءات المادية - بالسلطة والمال والمركز الاجتماعى المرموق - لكى يتجنب مواجهة حقيقة مسئوليته. فيتحول إلى خادم للقوى السائدة فى المجتمع، فان العالم كثيرا ما يواجه تلك الحقيقة لحظة أزمة وجودية يغير خلالها تحديد موقفه مما هو فيه من دنيا وآخرة. أى يعى أنه ذو سياسة ودين. وقد يستطيع العالم ان يتجنب هذه المواجهة الذاتية لفترة تطول أو تقصر، يساعده فى ذلك افيون الشهرة والنجاح والسلطة والمال، فيلهيه هذا التكاثر عن لحظة المواجهة حتى تأتى كالقارعة فيعيد تقييم موقفه (الدينى والسياسى) ويختار بين المواجهة أو ان يزداد تشبثا بما مضى ويزداد لهوا بالتكاثر. أى أن العالم اما أن يزداد فعالية كمواطن وكعضو فى المجتمع وكانسان أو يزداد خوفا وانسحابا وراء المزيد من الأقنعة أى يزداد صحة أو يزداد مرضا، وفى كلمتين بين أن يحيا أو يموت. وحينما يخلع العالم هذا القناع أو ينهار القناع فيواجه حقيقة انسانيته وأنه ليس مجرد دور يؤديه فانه يواجه مسئوليته وحريته ويلتزم من هذا المنطلق بموقف ازاء الحياة من موقع وجوده فى لحظة ما.

وهكذا فان هذا الكتاب، كمحاولة علمية، لا يملى موقفا على قارئه وانما يتعمد اثارة التساؤل بل والحيرة لكى يدفعه باستمرار إلى اعادة النظر ومواجهة مسئوليته كفرد تجاه نفسه وتجاه أسرته ووطنه وانسانيته مكيفا نفسه لكل لحظة وبقعة ومتطورا متغيرا

مع حركة الحياة وتغيرها ..لكى يكون متكيفا متطورا معا، ومحافظا وثائرا معا، وعالما وانسانا معا، وطفلا وراشدا معا : ذلك هو الانسان الصحيح المتكامل الذى يجمع بين الاضداد ويعلو فوقها.

منهج هذه الدراسة بين الكم والكيف :

تعودنا ان يكون العلم مساويا للمعلومات. وظننا أنه كلما زاد كما فقد زاد العلم. الا ان العقول الالكترونية فاقت الانسان فى قدرتها على الاحتفاظ بكم هائل من المعلومات فى ذاكرتها واعادتها بدقة وبسرعة متناهية. وهذ مع ذلك ليست الا أدوات فى يد العالم تخدمه ولا تستخدمه. ومن قبل العقول الالكترونية فكم من عبقرى كان تاريخه الدراسى مرصعا بالفشل. فهذا آينشتاين Einstein وهذا تشرشل Churchill وهذا العقاد وغيرهم حفل تاريخهم الدراسى بالفشل والكسل ومع ذلك فاننا ما زلنا نقيم الطالب بقدرته على جنى المعلومات واعادة «كرها» فى ساعات من الزمن تسمى بالامتحانات. ويحدد مصيره بناء عليها بل يحدد رزقه. ويقدر خضوعه لعمليات جنى المعلومات وغسل المخ بقدر رضاء الممتحنين عنه وتقديرهم له باعطائهم اياه تذكرة دخول إلى الفئات المميزة فى المجتمع. فالمفضلون عند مرحلة التوجيهية يذهبون إلى الجامعات ويوزعون على الكليات حسب عائد كل كلية من المكسب الدنيوى (المادة والسلطة والمكانة فى المجتمع). وينطبق هذا أيضا على المواقف التى يمليها الواقع حيث يكون الممتحن ناخبا أو رئيسا ويكون خضوع الطالب أو من فى حكمه لقيم صاحب القرار هو المحك الذى يقيم به.

وتمشيا مع ما ذكرنا من أن كل موقف فى الفكر أو العلم هو موقف فى الدين أو السياسة فان هذا المنهج فى التعليم ليس الا تعبيرا عن أوضاع سياسية ودينية معينة.

فالقيمة السياسية السائدة فى هذه الحالة هى الطاعة العمياء والقدرة على حشو المعلومات بدون تفكير أو مناقشة وبخضوع لسلطة هرمية ممثلة فى الأساتذة أو الممتحنين أو الناخبين أو الرؤساء. والذى يخضع لهذه القيمة هو الذى يجنى أعلى الدرجات ويحصل على أكبر المزايا بالتالى. كما أن القيمة الدينية السائدة هنا جوهرها الاشراك فتارة يعبد البقرة الذهبية بجانب عبادة اللّه وأحيانا بالتبادل معها فيقدس قيمة المال والمكسب ويسعى وراءها ويبيع المرء نفسه وضميره لها فيقتل قدرته على التفكير المستقل ويسخر نفسه لمتطلبات البقرة الذهبية وتارة يشرك باللّه أو يستبدل به السلطان الجالس على عرش السلطة والذى يكاد ينادى جهارا بانه ربنا الأعلى، وقد يعطى لعبادة اللّه المجاملة اللفظية معلنا ولاءه للّه أو الدين أو غير ذلك وهو فى حقيقة الأمر يتصرف كما لو هو فعلا ربنا الأعلى، ومادام لن ينقص من واقعه شيء فلا ضرر من الولاء اللفظى دون الفعل.

انطلاقا من تلك المعتقدات الدينية والسياسية فان التعليم ما زال يعانى حتى الآن من مفهوم الكم فى المعلومات وقدرة الطالب على أن يكرر ما يملى عليه وان يتابع ويتعامى وأن يقتل قدراته وتلقائيته. وينتظر من أى كتاب علمى أن يكون مجرد اضافة كمية أخرى وهى غالبا ليست باضافة بقدر ما هى مجرد اعادة لترتيب المعلومات تأكيدا للقيم السائدة واستشهادا بالأرقام والمقاييس على صحتها. والعلم فى هذه الحالة لا يقدم جديدا وهو لهذا قاصر. انه يخدم الواقع ويساعد على ابقائه متجمدا وهو موقف سياسى ودينى فى حد ذاته. وكثيرا ما يكون الاختلاف بين كتاب وآخر أن أحدهما يحوى كما من المعلومات مرتبه بطريقة ما والآخر يضيف كما آخر أو يقلله (اعترافا بتدهور قدرات الطالب كوعاء لتخزين المعلومات أو رضوخا لكسله فى التجميع أو

دخولا فى مناقصة لكسب رضائه أو اكتفاء باعادة ترتيب ما هو موجود). وهذا كاتب يرى أن الشرب يجب أن يبدأ بالقله الاولى ثم الثالثة وآخر يصر على أن يكون الترتيب الثانية ثم الثالثة، وآخر يرى ضرورة وجود قلة رابعة أو ابريق (كما فى قصة التركى والقلل).

واذا كان التجديد مطلوبا فلعل الحاجة اليه أكثر الحاحا فيما يختص بمفهوم التعليم ليتغير الاهتمام بالكم فى المعلومات، إلى الاهتمام بالكَيف. ويكون المنطلق فى هذا الحالة ليس هو كمية المعلومات التى يجنيها الطالب بقدر ما هو القدرة على التفكير والمناقشة والخلق. ولهذا يجب أن يجمع الكتاب العلمى بين الاتجاهين. فاذا كان هذا التفكير وذلك الخلق لا يأتيان فى الوضع الأمثل الا من خلال عملية الممارسة ذاتها، أى ممارسة التفكير والخلق والمناقشة، فما هو دور الكتاب أو المحاضرة بوجه عام ؟ هنا نجد تصارع الأضداد - الكيف والكم - يوجد لنا جماعا يحويهما معا. فالكتاب يجب الا يكون مجرد اضافة كمية للمعلومات فحسب ولكنه يستطيع بدرجة ما أن يكون مثيرا للتفكير ومحاولة لانشاء حوار ولو بدا فى شكله واطاره العام كما لو كان إلقاء من جانب واحد. أى أنه مطالب بأن يعطى الطالب قدرا من الكم من المعلومات يستند اليه ولكن على أن يكون مصاغا بكيفية تجعله مثيرا لعقل الطالب وانفعاله وفضوله. فمن جانب تكون الأفكار والمعلومات مرتبة مسلسلة مبوبة ومن جانب آخر تنبعث الكلمات من وجدان الكاتب بفيض من الانفعال. ولعل المقارنة تكون مع طريقتين للتفكير هما وظيفتان لفصى المخ. كما اظهرتهما بعض الأبحاث الحديثة فى هذا المجال. فالفص الأيسر فى المخ يسيطر على الجانب الأيمن من جسم الانسان وهو عادة الجانب المتغلب فى القدرة والتحكم ولذلك يعرف بالفص (أو النصيف)

المتغلب Dominant. وتتركز فيه وظائف الكلام والقدرات اللفظية والتفكير المنطقى المتسلسل التحليلى وغير ذلك. بينما الفص (النصيف) الأيمن الذى يسيطر على الجانب الأيسر من الجسم وهو عادة الجانب المنحسر والأضعف، كان يعتقد أنه لا يؤدى وظيفة مختلفة كيفيا عن الفص الآخر. ألا أنه ثبتت ايجابية وظيفته من حيث أنه يحوى وظائف فكرية ذات نوعية مختلفة مثل التفكير الحدسى والفنى والموسيقى والقدرة على التجميع والنظرة الكلية. وقد لوحظ هذا الاختلال فى بعض الحالات التى اجريت فيها عمليات قطع فيها الجسم الصلب Corpus Callosum الذى يوصل بين الفصين. ويمكننا أن نلخص وظيفة الفصين بأن الفص الأيسر يمثل التفكير العلمى بينما الفص الأيمن يمثل التفكير الفنى.

وهاتان الوسيلتان للتفكير وان كانتا تتمركزان فى كل فص على حدة ألا اننا قلما نستخدم أحدهما باستقلال تام عن الآخر، وان كانت الغلبة كثيرا ما تكون لأحدهما أو بينهما بالتتالى. فالعالم يحتاج إلى الحدس والالهام يكتشف، ولكنه عندما يريد أن يبرهن على اكتشافه ويترجمه إلى تفاصيل عملية والفاظ منطقية ومفاهيم محددة فهو يحتاج إلى الفكر المنطقى المرتب. وحين يطغى فص على الاخر بصورة مبالغ فيها فاننا نجد اختلالا فى توازن وسيلتى التفكير. مما قد يعوق التكيف أو قد يؤدى مع الوقت ومع سيطرة جانب على آخر إلى رد فعل وثورة من الجانب المغلوب، الأمر الذى قد لا يعيد التوازن بقدر ما يعكس ميزان السيطرة فيعيد الكرة مثل حركة البندول. ولذا كان لابد من ايجاد نوع من التوازن بينهما.

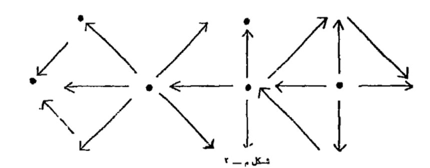
اذن فالكتاب العلمى لكى يكون متكاملا لا بد له ان يوازن بصيغة متكاملة بين النمطين فيكون متسلسل الفكر ومنطقى الترتيب ودقيقا، ولكن ليس للدرجة التى تجعله

جافا مر المذاق يخلو أسلوبه من الجمال الذى يميز الأعمال الفنية. وان يكون حدسى الاستنتاجات، متشعب الأفكار والمواضيع مثيرا لتداعى افكاره وكلن ليس بدرجة تجعله يتوه ويغرق فى الظلمات والمتاهات.

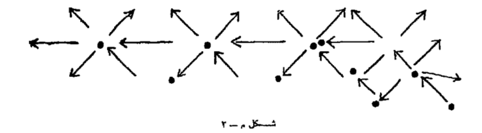
ونستطيع أن نطور هذا الجماع هكذا: فالتفكير العلمى المنطقى متسلسل هادف، النقطة فيه تتلوها نقطة مرتبطة بالتى قبلها هكذا (شكل ١-١)

شكل (١-١)

بينما التفكير الخلاق متشعب والأفكار تتناثر ذات اليمين وذات اليسار دون اتجاه واضح أو ترتيب (شكل ١-٢).



والجماع بينهما يشمل الخط الفكرى ذو الاتجاه مع السماح لبعض التفرعات فى الطريق والتى تسمح بتغيير الاتجاه الرئيسى عند اللزوم (شكل ١-٣).



بهذه الطريقة يمكن للقارئ (والكاتب فى المقام الأول) أن يلتزم باتجاه محدد لموضوعه ولكنه فى نفس الوقت يترك الفرصة لدخول الأفكار الجانبية التى تسمح بالخلق والتجديد وتشجع القارئ بل وتدفعه بالتالى إلى التفكير المستقل المكمل للخط الرئيسى مع استطاعته التطبيق فى مجالات الحياة المختلفة.

هذا اذا نظرنا للكتاب كأساس للوعاء العلمى للطالب، وهو ولا شك أضعف الايمان إذ هو مهما كان مثيرا للفكر والمناقشة عند القارئ، ومهما يعتبر حوارا يحدث التغيير فهو لا يستقبل ممن يحدث فيه التغيير الأمر الذى يجعله إلى حد كبير حوارا من جانب واحد.

أما المحاضرة فقد تبعد خطوة عن هذا الاتجاه وان بقيت بعيدة عن اطار الحوار ذى الجانبين، فالمحاضر يلقى ولا يسمع الا فى حدود الأسئلة والتعليقات المحدودة أو على أقل تقدير تعبيرات الوجه. والأفضل منها هو الندوات والمناقشات المحدودة العدد. ولعل الأزهر قديما كان يعتمد على هذه الطريقة، فمن خلال الأخذ والرد والمناقشة المباشرة واللقاء القريب بين الطالب والأستاذ يثار فكر الطالب وتتفجر إمكانياته الخلاقة ويشعر بالندية ازاء استاذه. فهو يتفاعل معه ولا يقف منه موقف المستقبل السلبى أو المفعول به. الا أن هذا النمط رغم تقدميته فهو ما زال يضع الأستاذ والطالب على طرفين أحدهما أعلى من الثانى لا يصل إلى الندية الحقيقية، وهو أمر لا مفر منه طالما ان أحدهما يملك من العلم أكثر من الآخر. ولكن الاتجاه نحو التحرر بدافع من ألم الصراع بين الغالب والمغلوب يجعلنا نهدف إلى تحقيق خطوات نحو تقريب المسافة بين الطرفين أملا فى الوصول إلى علاقة تساو وندية، فتتغير العلاقة من فاعل ومفعول به بين الأستاذ والتلميذ إلى تفاعل متبادل. وهذا يقترب من الحدوث كلما جعلنا المشكلة

المطروحة هى سيدة الموقف والمعركة فى مواجهة المشكلة من قبل اثنين، وهما الطالب والأستاذ معا، لا يميز أحدهما عن الآخر الا فيما أوتى من علم وخبرة (الأستاذ) أو من فضول وتساؤل وحيرة وثورية (الطالب) وهما جانبان لا غنى عنهما فى الفكر والفعل ومكملان لبعضهما. فالاختلاف هنا أصبح مصدرا للاثراء المتبادل وليس مبررا لتعالى طرف على آخر. والمساواة والندية هنا لا تعنى بالتالى التطابق مثلها مثل الذكر والأنثى اللذين خلقهما الله من نفس واحدة.

واذا كان هذا الاطار ممكنا فى اللقاء المباشر بين الطالب والأستاذ فهل يمكن للكتاب ان يتجاوز الاطار الذى تمليه عليه طبيعته ؟ فاطار الكتاب من حيث الشكل هو اطار الفاعل ازاء القارئ الذى يتلقى ويستقبل ما هو مكتوب دون أن يغير فيه بردوده عليه.

الا انه رغم هذا الشكل الذى يفرض على الكتاب هذا الموقع التسلطى فانه مع ذلك من الممكن ان تكون الكتاب من حيث المحتوى وطريقة التقديم بعيدا بدرجة ما عن هذا الشكل التسلطى، فيطرح الافكار بدون صفة القطع أو الآراء النهائية، بل يطرحها كالتساؤلات التى تحير الكاتب وتجعل القارئ يشاركه الحيرة والبحث. وعلى الجانب الآخر لا يكون التسلسل الفكرى متحجرا. بل يترك درجة من التنوع تجعل القارئ لا يخضع تفكيره لخط محدود وانما يتداعى مع الكاتب ويضيف هو بالتالى افكارا من عنده.

ولذلك فان الكاتب لا يعتذر عن انعدام التحديد الواضح وقلة النظام والدقة وعدم الترتيب والترقيم كما انه يتجنب النصح والوصفات القاطعة. فلا مجال لحديث عن كيفية معاملة الطفل وكيفية جلب السعادة للأسرة. فكل فرد عليه ان يكتشف طريقته الخاصة

فى ذلك. والعلم الحقيقى هو العلم الكلى المتكامل الذى يدمج المعرفة بالوجود. وهو أقرب إلى علم الحكماء منه إلى علم العلماء (بالمفهوم الغربى الذى فصل بين المعرفة والوجود وترك الانسان منشقا على نفسه). والحكمة المتكاملة مع العلم فى مقدورها ان تجمع بين أمور الدنيا وأمور الآخرة وبين الواقع والأمل. وبين المبادئ العامة وتفاصيل الحياة اليومية. تلك الحكمة المتكاملة مع العلم هى التى كانت تميز بعض الفلاسفة خاصة المتصوفين منهم. فهذا افلاطون يدعو إلى ان يكون الملوك فلاسفة أو يكون الفلاسفة ملوكا، وهذا ابن سينا ينشغل بأمور الدنيا قدر انشغاله بأمور الآخرة، والأمثلة عديدة فى التاريخ، ولم يحدث الا حديثا وفى اطار الحضارة الغربية ان تم هذا الفصل الواضح بين العلم والحكمة، وبين المعرفة والوجود، ولذا ظهرت تيارات الفكر الحديثة متمثلة فى الوجودية كما ظهرت فى هذا القرن كمحاولة لاعادة الاتزان. كما نجد آثارها فى المحاولات العديدة للجمع بين التفكير العلمى والتفكير الدينى لعل آخرها هو الجمع بين الاشتراكية العلمية (بل والماركسية أحيانا) والدين.

المنهج المنطقى التحليلى أشبه بما حدث للعميان فى القصة المعروفة عندما حاولوا وصف الفيل من خلال ملامسة أجزاء منه فقط فخلط كل منهم بين الجزء والكل. فالحقيقة واحدة وما يتغير فقط هو رؤيتنا لها.

وهكذا فان المعرفة التى تنبع من منظار ضيق لابد أن تكون ناقصة ولا مفر من أن تتناقض بالتالى مع النظريات المحدودة الأخرى. فالذى يرى أن الفيل كالحبل يختلف مع الذى يراه كالعامود. بينما المعرفة المتكاملة التى تجمع بين وجهات النظر المختلفة وتعتمد على جميع قدرات الانسان المعرفية – العلم والحكمة والعقل والوجدان – هى الأقرب للمعرفة الحقيقية فتتجاوز المتناقضات.

فها نحن فى هذا الكتاب ندعو القارئ للمشاركة فى رحلة بين تضاريس الطبيعة، فيها الوديان والجبال والسهول والانهار والغابات، وربما نكتشف معا فى الطريق ما لم نكن نبحث عنه أصلا، وهى رحلة فى قطار أو طائرة طريقها مرسوم وهدفها معرفة خالية من المفاجآت حتى ولو كانت المفاجأة هى الكارثة التى تؤدى إلى الفناء والعدم. بل هى أقرب إلى رحلة طائر ينطلق ويسعى نحو آفاق شاسعة وفى اتجاهات متعددة.

الفصل الثانى

نحو مفهوم الصحة النفسية

لا يستطيع كاتب ما فى أى موضوع أن يكتب الا وكانت له فلسفة أساسية. وقد يتجنب تعريف هذه الفلسفة أو تحديدها ولكنه لا يستطيع أن يتجنب وجودها. فالاختيار اذن ليس أن يكون للمرء فلسفة أو لا يكون ولكن أن يعى هذه الفلسفة بوضوح وتحديد أو لا يعيها. وفى هذه المقدمة سوف نبذل محاولة لمثل هذا التعريف ملتزمين بموضوع الكتاب وهو الطب النفسى للاطفال كنقطة ارتكاز.

الشيء وضده :

سوف نتعرض باستمرار إلى تعريفات لمفاهيم مختلفة ولذا كان لابد لنا من منهج للتعريف. ان تعريف الشيء بالموجب لا ينفصل ضمنيا عن نفى نقيضه. فالتعريف المطلق المجرد من المقارنة، عملية لا يستطيعها العقل البشرى. فاذا تحدثنا عن الأبيض فالذى يتبادر إلى ذهننا هو المقارنة مع ما هو ليس أبيض وليكون الاسود مثلا أو أى لون آخر. اذا تحدثنا عما هو كبير فالذى يتبادر إلى الذهن هو ما ليس كبير أى ما هو صغير. وتزداد الصعوبة حينما يكون للمفهوم قيمة ما بالنسبة للمعرف. فهنا تدخل رغبة المعرف فى أن يجعل الشيء أفضل من ضده فهو يفضل هذا الشيء على ضده، وهو لهذا يرغب فى تغليب الشيء على ضده. فيطلق مثلا على الشيء الذى يفضله قيمة الخير فى مقابل الشر أو قيمة الحق فى مقابل الباطل. ويسعى باستمرار إلى ان يغلب الافضل. الا انه يجد نفسه قد وقع فى معضلة لا حل لها الا وهى انه

لكي يستمر فى نعت الشىء بانه خير فلابد أن يكون فى ذهنه فى ذات اللحظة القيمة المضادة وهى الشر. فيجد نفسه لا يستطيع ان يقضى تماما على فكرة الشر بالتفكير فى الخير. اذ انه لا وجود للخير الا فى مقابل الشر. أى أن وجوده ليس وجودا مطلقا. واذا كان هذا السعى وراء المطلق موجودا فى تفكيرنا الا انه فى الواقع لا يتحقق الا بانتهاء السعى إليه أى بأن يقبل المرء الشىء وضده معا.

ولعلنا نجد انعكاس النظرة فى تعبير رابعة العدوية فى قولها ما معناه أنها لا تسعى للّه رغبة فى جنته أو خوفا من ناره وانما تسعى إليه لذاته. فبانتهاء السعى وراء الجنة والخوف من النار أى بانتهاء تفضيلها للشىء على ضده فانها تجد السكينة فى قبول الحقيقة. ونستطيع ان نجد هذا المعنى فى خبرات متشابهة يمر بها من يعرفون بالمتصوفين علاوة على غيرهم ممن قد لا ينعتون بهذه الصفة ولكنهم يمرون بخبرة مشابهة. فقد نجدها عند فنان أو عالم أثناء لحظة خلق أو عند الانسان العادى فى مواقف مختلفة لعل أكثرها وضوحا هى لحظة خلق المواجهة مع الفناء أو الموت أو الخطر الداهم. عندئذ قد ينكشف أن لكل شىء مكانه وليس هناك شىء أفضل من شىء أو على تعبير القول الشائع «ليس فى الامكان أبدع مما كان». فالمرء فى هذه اللحظة يكون متعاليا على الرغبة متقبلا للواقع كما هو لا يسعى إلى تغيير شىء، وهو يشعر أنه جزء من هذا الواقع مكمل له، وليس فى تناقض معه. فيتواجد فى انسجام تام بلا صراع بينه وبين واقعه ولا صراع بالتالى بين جوانب من هذا الواقع وجوانب أخرى. فالذى يفطن إليه ان تفضيل شىء على ضده ليس الا اسقاطا لاحساسه بتناقض ذاته مع واقعه. واذا انتهى هذا التناقض بين الذات والواقع فان الصراعات الخارجية تبدو وهمية بالتالى. الا ان هذا الانعدام التام للصراع والتوقف يساوى حالة

من السكينة التامة التى لا يتولد عنها صراع ولا حركة وهى تتنافى مع وجود الانسان على قيد الحياة يسعى دائما إلى التفاعل والتعبير والحركة. وقد يبدو لأول وهله ان مثل هذه الخبرة تساوى حالة السكون التام التى تصل ذروتها فى الموت. ولهذا فان هناك جانبا آخر لهذه الخبرة وهو القدرة على الاحساس بالانسجام مع الواقع، فى نفس الوقت الذى يشعر فيه – بحكم وجوده، وكذات منفصله عن هذا الواقع – بهذا الانفصال عن الواقع وبالتالى التصارع معه. أى أن الخبرة الصوفية الحقة هى تلك التى لا تعطل الفعل لانها تحتوى ايضا على الرغبة فى التغيير (فى وجودنا الدنيوى وحيث الواقع ملىء بالمتناقضات) مع قبول الشىء المراد تغييره وترى هذا فى قول أبى الحسن الشاذلى : «نحن فى خلوة فى جلوة». أى أنه فى حدوث السكينة والاشراقة يستمر التعامل مع الواقع اليومي. أو في قول محيى الدين بن عربى فى وصف حالة الاشراقة بأنها «لم تأخذنى منى.. بل أبقتنى معى» أى مع حدوث الذوبان تنتهى الذاتية أو الوعى بانفصال الذات عن الموضوع ووعى الذات بالذات كمجرد كيان منفصل. فهى فى الحقيقة تقبل الشىء ونقيضه على أكمل صورة.

ولعلنا نجد الترجمة الواقعية لهذا الأمر فى خبرة كثير من الأنبياء والمتصوفين الذين رأوا الجنة بصورة أو أخرى ولكنهم عادوا منها مختارين لكى يعيدوا ممارسة الحياة على الأرض بكل ما فيها من صراع. ويفسر ذلك كيف أن الدعوة إلى الحب التى تجدها فى كل الأديان لا تتناقض مع وجود مظاهر الكره فى القتال والعقاب.

واذا حاولنا ترجمة هذه الخبرة إلى مفهوم فلسفى فاننا نجد أنها مقاربة إلى فكرة الديالكتيك (الجدل) اذ توجد الاطروحة Thesis فى مقابل الاطروحة المضادة An-tithesis ومن خلال التصارع بينهما يظهر الحل فى صورة جماع الاطروحة

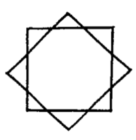
Synthesis. وظهور الحل لا يجعله مطلقا اذ أن هذه المحاولة لتحويل الجماع إلى مطلق تنتهى بأن يصبح هذا الجماع هو ذاته أطروحة تقابلها أطروحة مضادة ويبدو الحل مرة أخرى فى المتناول فى صورة جماع جديد للاطروحة. وهكذا بلا نهاية.

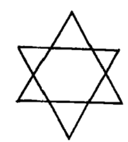
فالجماع اذن هو بحكم التعريف ما يوجد فى وجود الاطروحة والاطروحة المضادة أى الشىء وضده، أى أن الحل لا يتأتى بتغليب شىء ضده ولكن بالقدرة على تقبلها.

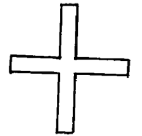
وقد أشار يونج Jung فى كثير من كتاباته عن الرموز إلى كيفية أن هذه الحالة من السكينة أو التكامل النفسى التى يصفها بالتفرد Individualation يشار إليها بجمع الشىء وضده فنجد صورا للانسان تجمع بين الذكورة والأنوثة وبين الخير والشر والنور والظلام. كما أننا نجد رموزا متكررة جامعة للشىء وضده فمثلا فى الصين نجد علامة إلين يانج Yin-Yang هكذا.



وهى توضح كيف أن الشىء وضده يجتمعان فى اطار واحد. وكذلك نجد هذه الرموز فى الأديان المختلفة فى صورة تقابل بين أشكال مضادة منها المربع كما فى أشكال الفن الاسلامى والمثلث فى اليهودية والصليب فى المسيحية.







فان كانت الأضداد فى تلك الرموز تبدو متشابهة بل لا تعدو أن تكون صورة معكوسة للشكل الا أننا نجد رموزا أخرى يكون الاختلاف فيها مكملا. وابرز التكامل هو ما نجده بين الموجب والسالب وبين الفاعل والمفعول وبين الذكر والأنثى. ومن الأمثلة لتلك الرموز شعار مهنة الصيدلة حيث نجد الثعبان (الذى هو فى الوقت ذاته شفاء) فى الكأس (وهو أن يقابل ما هو سلبى ودائرى ومؤنث ومفعول به).



والسم القاتل هو نفسه الدواء الشافى كقول أبى نواس «وداونى بالتى كانت هى الداء» أو حافظ ابراهيم فى حديثه عن كليوباتره «وقد يشفى العضال من العضال». وكذلك نجدها فى دور العبادة كما فى المئذنة والقبة.

مفهوم للصحة النفسية :

لعل هذه المقدمة كانت بداية الطريق نحو محاولة لتوضيح مفهوم للصحة النفسية. فقد رأينا أن وجود الشىء هو بحكم التعريف وجود الصراع بين الشىء وضده. كما رأينا ان حل هذا الصراع بتغليب جانب على آخر مستحيل منطقيا وأنه لا علاقة له بالواقع الموضوعى ولكنه اسقاط لما بداخل العقل الانسانى حينما ينحاز إلى جانب من جوانب الصراع وينكر وجود الجانب الآخر فى نفسه مما يضطره إلى اسقاطه تتولد

حينما يفطن العقل الانسانى إلى أن الشيء فى مواجهة ضده انما هى خدعة من خلق هذا العقل وأن الشيء لا يوجد الا مع ضده، ومن ثم يمكن قبول الانسان لحقيقة أن الشيء وضده موجودان بداخله وأن الصراع وهم وان فى هذه الرؤية، وفى هذا التقبل، توجد نهاية الصراع ولعلنا نلخص ذلك لو قلنا ان الصراع لا ينتهى الا بقبول وجوده.

فاذا قارنا هذا بما نحاول ان نسعى إليه من انهاء للصراع خلال النمط الطبى فنحن نترجم الصراع إلى . ألم. والألم تعبير عن مرض، والطب يبذل محاولة للتغلب على الألم والمرض. سنجد ان العلاج الحقيقى يتمثل فى القدرة على تقبل الألم كوسيلة لا كنهائية. وهو مفهوم طبى ينافى المفهوم التقليدى الذى عرف بانه محاولة القضاء على الألم أى نفيه. ولعل النتائج العلمية الشائعة لهذا الموقف التقليدى هى الافراط فى استخدام العقاقير (المسكنة أو المضادة للالتهابات والمضادة للحساسية). والضرر من سوء استخدام تلك العقاقير من هذا المنطلق، أى من منطلق نفى الألم، واضح فى حالة كثرة استخدام المسكنات على الأخص. الا أن هناك تطبيقات أقل وضوحا ولكنها ضارة مع ذلك مثل حالة المضادات الحيوية حينما ننظر إليها على أنها العلاج الحقيقى الذى يكتفى بمجرد محاولة نفى الألم. فالتسرع فى استخدام تلك العقاقير قد تبين أن له نتائج ضارة منها حرمان الجسم من تجنيد طاقاته الطبيعية المضادة للجراثيم (متمثلة فى ارتفاع الحرارة ونشاط الكرات البيضاء وتكوين الأجسام المضادة للجراثيم التى تكسب الجسم مناعة فى الأمد الطويل). وبالتالى يمكننا ان نتصور كيف أن التسرع فى استخدام العلاج قد يؤدى على الأمد الطويل إلى ضمور قدرات الجسم الطبيعية على مقاومة المرض.

ويمكن ايجاد أمثلة أخرى فى مجالات مختلفة منها مفهوم الراحة فى المرض أو بعد العمليات الجراحية الذى تغير حديثا فى إتجاه عدم الإفراط فى الراحة. ولعل هذه النظرة قد ساهمت فى تغيير المفهوم التقليدى للعلاج الطبى. ولاشك أن الطب النفسى قد ساهم بدوره فى تغيير هذه النظرة بادئا بأول تحول نتج عن إكتشافات التحليل النفسى بأن أظهر المرض كإضطراب فى علاقة الفرد ببيئته بدلا من النظرة إليه على أنه خلل داخل هذا الفرد. وتطور هذا المفهوم من خلال وجهة النظر الوجودية فى الطب النفسى التى طبقت هذا بوضوح وجذرية فى إطار علاقة الطبيب بالمرضى حيث أشارت إلى الطابع الإنسانى الذى يفرض نفسه على دور الطبيب والمريض.

فالجديد إذن فى مفهوم الطب النفسى فى العلاج لم يعد مجرد السعى وراء التغلب على الآلم والحصول على اللذة، إد أنه كما رأينا توجد إستحالة فى تحقيق هذا الهدف من حيث المبدأ، إذ لاتوجد لذة إلا فى مقابل الألم. ولكن الجديد هو القدرة على التغلب على الألم بقبول الألم ذاته أسوة بقبول السعى وراء اللذة والتغلب على الألم. فالمريض الذى يبدأ ويحضر للطبيب آملا فى أن يساعده هذا على التغلب على الألم يجد علاجه فى تقبله للآلم وبالتالى يكون أقدر على الإحساس باللذة.

ونشاهد تطبيق هذا التحول الذى يحدث للمريض المتبلد الحس الذى فقد قدرته على الإحساس بالألم واللذة، (مع ملاحظة أن هذه الحالة من التبلد قد تكون هى فى حد ذاتها الحالة المؤلمة التى دفعته إلى العلاج). هذا المريض يجد نفسه قادرا على إستعادة شعوره باللذة حينما يستعيد قدرته على الإحساس بالألم. والمعالج يساعده على مواجهة المه بدون خوف رهيب أو هرب كما يساعده على تقبل لذته دون أن يغرق فيها أو يندم عليها.

وهنا يأتى التحول الأخر فى مفهوم الصحة النفسية. إذ أنه حسب النمط الطبى نجد أن مفهوم الصحة يعنى غياب الألم. إلا أننا كثيرا ما نجد أن غياب الألم ليس دليل الصحة، بل على العكس قد يكون دليل المرض. فمرض السرطان بقدر خطورته كثيرا ما يبدأ بتورم غير مؤلم. كما أن فقدان الإحساس الذى يحدث فى بعض الأمراض العصبية مثل مرض السيرنجومايليا Syringomyelia يضيع الإحساس بالألم ويبقى الأحساس باللمس فى مواضع ما، فيؤدى إلى تقرحات ومضاعفات أخرى.

وكذلك فى حالة إنعدام الإحساس بالألم أحيانا فى العضو المريض مما يؤدى إلى إستمرار إستخدام هذا العضو كما لو لم يكن به مرض فينتج عنه أن يحرم هذا العضو من الراحة فيزداد مرضا.

أن المقابل النفسى لذلك هو أن المرء الذى لا يشعر باللذة. وأن الصحة النفسية ليست إنعدام الألم فى حد ذاته، ولكنها تشمل أيضا القدرة على تقبله. وأن الرغبة فى إحلال اللذة محل الألم ليست إلا وهما ناتجا عن الإنحياز تجاه جانب فى صراع الأضداد - الألم واللذة - وبالتالى فهو مستحيل بحكم التعريف وإنما على الألم يأتى بالقدرة على تقبله.

وإذا ما طبقنا ذلك على واقعنا سوف نتساءل كثيرا عن من هو الأصح نفسيا : هل هو المريض الذى يذهب إلى الطبيب النفسى أو الإنسان «العادى» الذى ينكر ألمه ويتجنبه ؟ ولعلنا نجد فرصة أفضل للإجابة على هذا التساؤل بوضوح فى مجال الطب النفسى للأطفال، فكثيرا ما نرى الطفل المريض ما هو إلا المعبر الظاهرى عن مرض أسرته وكثيرا ما يكون هو أكثر أبناء الأسرة ذكاء وحساسية ورغبة فى التطور والنمو، ومعاناته ليست إلا دليلا على صدق رغبته هذه وإحباطها إزاء تحجر أسرته أو

مقاومتها .

وهنا يولد فهم جديد لنمط المرض النفسى فبدلا من النظر خلال النمط الطبى التقليدى على انه اختلال فى داخل الفرد تراه مظهرا من مظاهر اضطراب العلاقة بين هذا الفرد وبيئته. وهو اضطراب لا يعبر عن نقص فى هذا الفرد أو عيب فيه بل ان العكس يكون صحيحا أحيانا، وذلك حين يكون الفرد بحكم تفوقه على بيئته هو الذى يعانى من مقاومة بيئته لنموه.

فالمرض النفسى هنا هو عملة ذات وجهين وليست خللا فى وجه دون الآخر. وهنا يمكن النظر إلى معاناة الانسان فى صورة الألم والمرض النفسى كمحاولة من جانب الفرد للتطور والنمو بدلا من التوقف عند التكيف الأعمى لبيئة بشكل جامد. وهذا يؤدى بنا إلى فهم المرض النفسى من خلال نمط النمو Growth model أو التطور، بدلا من النمط الطبى التقليدى Medical model ولكن لابد لنا من التنبيه هنا دفاعا عن النمط الطبى التقليدى وتحاشيا للانزلاق فى الدفاع الرومانسى عن المرض إلى أنه لا يوجد مبرر حقيقى للهزيمة والاستسلام فى صورة المرض. فالانسان المتطور مهما عانى وتألم فهويستطيع دائما ان يجمع بين التطور والتكيف فى آن واحد – وذلك استمرارا لتطبيق مبدأ الجماع للاطروحة – فاذا كان التطور يتناقض مع التكيف فان حل هذا التناقض لا يأتى بتغليب التطور على التكيف وذلك لان التطور كمطلق لا وجود له فى مقابل التكيف.

هنا يتضح الفخ الذى يقع فيه الطب النفسى التقليدى وذلك أنه غالبا ما يكون الطب النفسى مجرد أداة لطرف من الأطراف وهو عادة طرف التكيف فى مقابل التطور. فيجد نفسه فى مواجهة المريض الذى جاء مرضه نتيجة لرغبته فى التطور بأن شذ

واختلف عن مجموعته. فالطبيب الذى يأخذ هذا الدور يكون محكوما عليه بالفشل – وذلك لرغبته فى تغليب كفة من كفتى الصراع على الأخرى ويجد نفسه فى تناطح مع المرض والمريض على السواء. وكلما زادت مقاومته زادت مقاومة الطرف الآخر كمثل الجسم الزلق فى القبضة القوية، كلما زادت قوة القبضة زاد انزلاق الجسم.

والنتيجة العملية لذلك أن يستمر المرض النفسى طالما هناك طب نفسى، فى علاقة أقرب ما تكون إلى التكافل بين الظاهرة والمهنة، ولم ؟ فالطبيب النفسى يبرر وجوده من خلال وجود المرض النفسى وانتشاره، وتزداد أهميته كلما ازداد الاحتياج إليه. وينتج عن ذلك ان الطب النفسى قد يجد نفسه فى تناقض مع الصحة النفسية ويجد مصلحته فى ابقاء ظاهرة المرض موجودة فى حدود معينة كما فى حالة سمك «الباراكودا» الذى يحرص على حياة فريسته ابقاء عليها لكى يأكلها حينما يجوع. وأسوة براعى الأغنام الذى يرعاها ويسمنها لكى يأكلها وقتما يريد.

والعلاج الحقيقى والجذرى للمرض لا يتأتى الا من خلال جماع الاطروحة أى بالقدرة على تقبل المرض علاوة على رفض المرض، فالمريض يرفض أعراضه ويشكو منها وكلما زاد رفضه زادت الأعراض. والطبيب ازاء ذلك يجب ان يقبل المريض ويقبل رفض المريض لتلك الأعراض. وازاء هذا القبول فان الاعراض – فى غياب الاطروحة المضادة وهى رفض الطبيب تعود إلى مكانتها كجماع للاطروحة السابقة وهى الصراع لدى المريض بين الرغبة والرغبة المضادة – ومع ظهور هذا الصراع إلى السطح وتقبل جانبى الصراع فان المرض يختفى. وقد تتكرر هذه العملية على عدة مستويات فالرغبة قد تكون فى حد ذاتها جماعا لاطروحة أخرى تظهر مع القدرة على تقبل تلك الرغبة وهكذا، مما يجعل العلاج يؤدى إلى تصفية الصراعات الظاهرية إلى

صراعات سياسية ثم تقبل الجانبين. ونهاية العلاج هنا ليست نهاية الصراع وانعدامه ولكن بقبول وجود الصراع، واستمرار العلاج أو التطور يتوقف على مدى الألم وعمق الصراع الذى يختفى واء الصراع الظاهرى. (١)

ولكى نعيد صياغة ما سبق ذكره نستطيع ان نقول ان الصحة النفسية هى جماع بين التكيف والتطور وبين التقبل والرفض. وبعبارة أخرى الجمع بين الأضداد فى اطار واحد.

التطور والتكيف فى الصحة النفسية :

أشرنا إلى أن التكيف التام يتناقض مع التطور كما أشرنا إلى أن التطور المستمر قد يعوق التكيف، وكيف أن الصحة النفسية بمفهوم الجمع بين الأضداد تقتضى القدرة على التكيف والتطور معا. ولابد أن نفرق هنا بين قيمة قد تكون من اسقاط الكاتب بمعنى تفضيله لمفهوم معين للصحة النفسية وبين المحاولة الصادقة للنظر بموضوعية دون تشويه الاحتياجات الشخصية للكاتب أو القارئ.

فواقع الأمر يظهر لنا كيف أن الفرد أو المجتمع أو الكائنات الحية بصفة عامة كانت تحتاج على مر الزمان إلى قدر من التكيف مع قدر من التطور. فالتكيف التام يؤدى إلى درجة من الجمود والملل، قد تنتهى بالموت أو على الأقل تتساوى معه. ففى عالم

---

(١) ابتدع فكتور فرانكل Frankl طريقة الـ Logotherapy حيث يستخدم وسيلة القصد المفارق Paradoxical intention وتعتمد على تطبيق لهذه الفلسفة. فهو يطلب من المريض أن يفعل الشيء الذى يشكو من أنه يقاوم فعله كما يحدث فى الوسواس القهرى أو الشيء الذى نخاف من فعله كما فى حالة الرهات.

الحيوان نستطيع أن نرى كيف أن كل نوع قد وصل إلى قمة درجة تكيفه فتوقف عن التطور. ولكنه نتيجة لهذا التوقف قد أصبح فى حالة من الجمود تجعله لا يستطيع أن يجابه ظروفا جديدة فى حالة حدوثها فيؤدى هذا بالتالى إلى انقراض النوع. فالديناصور مثلا قد وصل إلى قمة التكيف من حيث الحجم والقوة. الا انه فى مجابهة تغيير الظروف من نقصان فى الطعام أو الحاجة إلى الانتقال السريع لم يستطع أن يجابه الواقع الجديد فانقرض، وهنا نرى ان التكيف عندما يزيد عن حده فانه ينقلب إلى ضده فيصبح انعداما للتكيف. ولعل الانسان فى عالم الأحياء هو القادر على المرونة التى تجعله يحمل شعلة التطور مع احتفاظه بقدرته على التكيف.

واذا أخذنا مثالا من المجتمع الانسانى لوجدنا ان بعض الحضارات مثل الحضارة المصرية القديمة وصلت إلى درجة من التكيف انتهت بها إلى الجمود والثبات الذى أدى بدوره إلى انتهاء تلك الحضارة.

وعلى مستوى الفرد نرى كيف ان الفرد المتكيف تماما مع مجتمعه فى الحياة إليومية قد يصل الى درجة من الآلية وعدم القدرة على التحديد تجعله انسانا معدوم الشكلية والتلقائية والحرية كالدمية ينقصه النبض الداخلى والاحساس، حتى انه يصبح فى النهاية مجرد ترس فى آلة وضحية لقوى خارجية وكائنا مسلوب الارادة.

وعلى الجانب الآخر لو نظرنا إلى التطور على أنه يشمل القدرة على التغيير والتجديد ودرجة من الرفض للواقع التى قد تتحول إلى درجة من عدم التكيف فاننا نرى كيف ان الانسان دونا عن الحيوانات الأخرى المتكيفة قد استطاع ان يحتفظ بهذه القدرة على التغيير والتجديد مما جعله اقدر على مجابهة الظروف الجديدة وبالتالى، على الأمد الطويل، أكثر قدرة على التكيف. ولكنه لنفس السبب – أى قدرته على التطور

– يتنازل عن الكثير من أدوات التكيف التقليدية مثل الأظافر والأنياب والدروع، فيصبح بالتالى أكثر عرضة للموت فى الأمد القصير. اذ كلما قلت هذه القدرة على التكيف لحساب التطور كلما أصبح اكثر عرضة للهزيمة السريعة. الا أن القوة والبقاء لا تقاس بالضرورة بالاثار المباشرة ولا بد من أخذ عنصر الزمان فى الاعتبار، فان التنازل عن الأسلحة التكيفية القصير الأمد فى سبيل التطور أعطى فرصة للانسان لايجاد أسلحة تكيفية جديدة أكثر فاعلية.

وعلى مستوى المجمتع نستطيع ان نرى كيف ان المجتمع وهو فى حالة التجديد أو التغيير الداخلى قد يميل إلى الانغلاق على ذاته، وينسحب من تحدى التكيف مع المجتمعات الأخرى. فنشاهد كيف أنه ابان الثورات تغلق الحدود وتتوقف الحروب الخارجية والغزوات إلى أن تحدث التغييرات الداخلية المطلوبة فيعود الانفتاح على العالم الخارجى بعد الوصول إلى درجة من الاستقرار. فاذا استمرت الثورة الداخلية بدون قدر من الاستقرار يسمح بالانفتاح فيما بعد فان ذلك يؤدى إلى استنزاف داخلى لقوى هذا المجتمع مما يعرضه للغزوات من الخارج والهزيمة. ومرة أخرى نرى كيف أن التطور – بمعنى الثورة الاجتماعية المستمرة – اذا زاد عن حده قد ينقلب إلى ضده ويؤدى بالمجتمع إلى التدهور والانهيار.

اما على مستوى الفرد فاننا نشاهد المثال بوضوح فى حالة الشباب وما يصاحبه من ثورة وتغيير داخلى ففى هذه المرحلة يعيد الفرد النظر في كل شيء ويتساءل ويتشكك ويثور ويسعى إلى التغييرات الجذرية. ومن خلال تلك الثورة يبحث الشاب عن هويته الجديدة ويبلور شخصيته استعدادا لأخذ دوره فى المجتمع، ولكننا نرى كيف أنه فى بعض الأحيان عندما تزداد الثورة عن حدها فانها تعوق قدرة الشاب على التكيف

فلا يستطيع الدراسة أو العمل أو الزواج، وبدلا من أن يكتشف الجديد فى نفسه يصير مكتفيا برفض القديم فحسب ويفشل بالتالى فى تكوين مفهوم جديد لذاته. فمرة أخرى نرى كيف أن الاطروحة فى التطور أدت إلى نتيجة عكسية بأن اكتفى الفرد بعدم التكيف فقط وبالتالى اندثر. وعلى مستوى التاريخ نرى كيف أن ثورات الشباب التى قام بها سقراط والمسيح عليه السلام وغيرهما والتى فاقت قدرة المجتمعات التى ظهرت فيها على تقبلها فأدت إلى المقاومة العنيفة من جانب المجتمعات. ولما لم تنجح المجتمعات فى القضاء على هذه الثورات بقتل مريديها جسمانيا، قتلتهم بأن حولت أفكارهم إلى انظمة جامدة ومتحجرة تقاوم هى ذاتها أية ثورة شابة. فحولت فلسفة سقراط وتفتح ذهنه وتعاليم المسيح إلى مبررات لقتل أى فكر جديد وأى ثورة أو تطور.

اذن نستطيع أن نلخص العلاقة بين التطور والتكيف بتشبيه ذلك بالماء المنساب والمجرى فالماء الذى ينساب (وهو يمثل الحركة والتطور) بدون مجرى ينتهى به الأمر إلى التبخر والاختفاء قبل أن يصل إلى هدف، وأما اذا كان المجرى متحجرا وغير قابل للاتساع أو الانعطاف عند اللزوم فانه يعوق سير الماء وينتهى به الأمر أيضا إلى الفيضان والضياع أو يتحول هذا الماء إلى ماء راكد وعفن.

بين السواء المطلق والسواء النسبى :

يقودنا هذا المفهوم للصحة النفسية بين التطور والتكيف إلى مفهومين للسواء يبدوان متناقضين، الأول : هو مفهوم السواء بالمعنى المطلق حتى ولو كان ذلك على

حساب التكيف، وهنا قد نتصور الفرد (المريض) هو الصحيح بينما البيئة مريضة.

والثانى : مفهوم السواء بالمعنى النسبى أو الاحصائى أى أن يكون الفرد مثل الآخرين أو انسانا «عاديا» حتى ولو كان هؤلاء مرضى بالقياس إلى نفس المجتمع فى حقبة أخرى من الزمن أو بالمقارنة مع مجتمع آخر.

ولعل التشبيه فى المجال العضوى هنا قد يوضح الصورة. فيما أن أغلب الناس يعانون من التسوس فى الأسنان فان التسوس فى الأسنان يعتبر شيئا «عاديا» أو سويا سواء نسبيا أو احصائيا. الا أن هذا لا يعنى ان التسوس فى الأسنان ليس مرضا بمقاييس الكمال الصحى المطلق.

وهناك قصة عن الحاكم الذى أبلغ أن الماء الذى يغذى المدينة سوف يلوث بمادة تسبب الجنون لمن يشربها، فأمر بحجز كمية الماء النقى غير الملوث لاستخدامه الشخصى لكى لا يصاب بالجنون، وبعد ان وصلت المياه الملوثة وأصيب قومه بالجنون وجد نفسه غريبا عنهم بل كانوا ينظرون إليه على أنه هو المجنون الوحيد فيهم بينما هم العقلاء، فتخلى عن مياهه وقرر أن يشرب من النهر ويشاركهم الجنون. ان السواء الذى تمتع به الحاكم قبل أن يشرب الماء الملوث كان ثمنه العزلة والغربة ومن ثم فقد رضى أن يبيع عقله فى مقابل الألفه والتواجد بين الآخرين ولو كانوا مجانين.

وفى الحياة اليومية نجد أن الفرد يتصارع بين النزعة إلى تحقيق ذاته وتأكيد اختلافه عن الآخرين مع دفع ثمن العزلة والوحدة والتصارع مع الآخرين الذى قد ينتهى به فى أسوأ الحالات إلى الجنون أو الانتحار أو إلى المخدرات والعقاقير، وعلى أحسن الفروض إلى الانعزال عن الدنيا فى برج عاجى أو إلى الاستشهاد.

وعلى الطرف الآخر نجد النزعة إلى محو فرديته وتأكيد تشابهه مع الآخرين حتى يصبح صورة جوفاء وخاليا من الاحساس العميق والقدرة على الخلق والابتكار. وبكلا الطرفين لا يحل الموقف فهناك ألم دائم فى كلتا الحالتين. والحل اذن هو فى القدرة على مواجهة حقيقية أنه ليس هناك حل فى تغليب جانب على آخر ولكن فى قبول النقيضين فى نفس الوقت، ويستطيع فى هذه الحالة أن يعيش وحدته واختلافه بالكامل فى نفس اللحظة التى يعيش فيها توحده مع الاخرين - فهو وحده ومع الآخرين.

وفى مجال طب الأطفال النفسى نجد المثال فى الأسرة التى تحيا هذه الحياة المتكيفة مع البيئة فتفرض نفس التكيف على أفرادها فلا تسمح لهم بالاختلاف، فاذا نشأ طفل يتميز بالاصرار على الاختلاف (أو ربما يكون به عيب خلقى يعيق قدرته على التكيف) فانه يعيش هذا الصراع الذى يأخذ صورة المرض أو الجنون فى حالة عدم تكيفه ازاء السلطة القاهرة للاسرة فلا يستطيع أن يؤكد فرديته الا بالجنون. ولكن اذا كانت الأسرة على درجة من المرونة وسعة الصدر (أو اذا اصبحت هكذا بواسطة العلاج) فان الطفل قد يجد فرصة ليؤكد ذاته المختلفة فى اطار من القبول العام من جانب الأسرة.

ونلخص معادلة السواء المطلق والسواء الاحصائى أو النسبى فى أنه لا هذا ولا ذاك يعتبر المقياس الحقيقى للصحة النفسية، ولكن يجب الاخذ فى الاعتبار بنظرة تشمل تناقضيهما فى اطار جماع.

هل هناك اتجاه :

وإذا كانت الصحة النفسية تخضع لصراع الأضداد وأصبح وجود الانسان أشبه بالذبذبة بين الأطراف.. فهل كل ما يحدث مجرد تكرار بدون هدف أو اتجاه ؟ وهل نحن مجرد أدوات مسلوبة الارادة تدور دون وعى ؟ ان وجودنا فى حد ذاته ووعينا بهذا الوجود يحوى رغبة فى الوجود، اننا نريد ان نحيا وقد سميت هذه الرغبة غريزة الحياة. ولكن الرغبة فى الحياة تعنى اننا نعى فى مقابل هذه الرغبة وجود رغبة مضادة الا وهى رغبة الموت. فاننا حينما نقول نريد أن نعيش فاننا نعى ان هناك حالة موت نريد ان ننفها. وقد نعى هذه الحالة المضادة، أى الموت، أو لا نعيها الا اننا طالما نحن منحازون إلى الرغبة فى الحياة فنحن ننكر الموت ونتجنبه. الا ان هذا بطبيعة الحال لا يلغى وجوده. اننا بعبارة أخرى نسعى إلى حل التناقض بين الحياة والموت بتغليب جانب على آخر، وكل ما يحدث هو ان رغبة الموت تبقى خارج دائرة الوعى ولكنها تفرض وجودها علينا بشكل أو آخر. فيستمر الصراع ونستمر طرفا فيه نحن نعى جانبا وننكر آخر وبالتالى يستمر الالم.

ونجد ذلك فى مجالات الطبيعة المختلفة. ففى عالم الاحياء قد يصر كائن على انه يمثل القوة أو الحياة أو الحق أو الفضيلة بينما الطرف الآخر يمثل الضعف أو الموت أو الباطل أو الرذيلة. فيستمر فى تعارضه مع هذا الطرف الاخر بعنف حتى يقضى عليه الا انه اذا نجح فى القضاء عليه نجده بالتالى يقضى على نفسه. اذ أن وجوده كان الاصل يعتمد على تناقضه مع ضده. فاذا أخذنا كمثل الكائنات الطفيلية التى تعيش فى جسم مضيفها «العائل» فهى تصارعه وتأكله فاذا نجحت فى القضاء عليه اتمت بذلك القضاء على مصدر بقائها وماتت هى الاخرى.

واذا أخذنا مثالا من تاريخ المجتمع الانسانى نجد ان دولة ما تستعمر دولة اخرى

وتسعى بكل طاقتها إلى استغلالها لاقصى درجة ولكنها بعد نقطة معينة قد تجد نفسها قد استنزفت ضحيتها لدرجة ان أصبحت الضحية عديمة القيمة ولا تصلح للمزيد من الاستنزاف. فاذا استمرت فى استنزافها غريمه لكى يسمح له بدرجة من النمو تجعله أكثر فائدة وأصلح للاستغلال الاستيطانى كما كان الحال فى جنوب افريقيا قبل إفاقة ورشد العنصر الأبيض المستغل.

وهنا تظهر ضرورة أخرى وهى انه لا بد للمستغل أن يخفف قبضته على غريمه لكى يسمح له بدرجته من النمو تجعله اكثر فائدة واصلح للاستغلال. وهذا ما يحدث فى الاستعمار الحديث. ونستطيع أن نرى التدرج فى نوعية الاستغلال فى أمثلة من العالم الحاضر فالعلاقة الاستعمارية بين البرتغال ومستعمراتها بها درجة من الاستنزاف اكثر من تلك الموجوده فى علاقة المستعمر الامريكى بمستعمراته. فالاول لم يستطع الدوام طويلا بينما الثانى أكثر قدرة على الاستمرار. والدول الغنية وأجهزتها مثل صندوق النقد الدولى صارت أكثر مرونة فى مطالبها من الدول الفقيرة.

واذا انتقلنا داخل الدولة لوجدنا نفس نوعية العلاقات بين الحاكم والمحكوم. فالحاكم فى النظم البدائية الذى يميل إلى فرض سلطانه بدرجة كبيرة من الجبروت يستنزف طاقة محكومية لتحمل تسلطه بسرعة فلا يدوم. ومثال ذلك الدكتاتوريات العسكرية التى لا تعمر طويلا فى أغلب الاحيان. وهى فى أفضل الاحوال قلما تتعدى حياة صاحبها بينما الدكتاتوريات المقنعة والتى تتستر وراء اسماء براقه مثل «الديمقرأطية» أو «الاشتراكية» وتمارس خدعة تغيير الوجود مع الاحتفاظ بالشكل تعيش مدى أطول. اذ تستطيع أن تستغل محكوميها بطريقة أفضل بأن تقدم لهم قدرا من التنازلات. ولعل المقارنة هنا توضح الامر وذلك اذا اخذنا مثال الذئب وفريسته بالمقارنة مع راعى الاغنام ونفس الفريسة.

واذا انتقلنا إلى مستوى الأسرة والطفل نجد أن الأسرة المتسلطة والصارمة فى نظامها قد تنجح فى الأمد القصير فى السيطرة على ارادة الطفل بدرجة كبيرة من التحكم الا ان هذا لا يستمر كثيرا ويأتى الوقت الذى يثور فيه الطفل سواء كان ذلك فى حينه أو بعد فترة فى شبابه فينقلب نهائيا على هذه السيطرة بالثورة العارمة عليها حتى يصبح هو بصورة ما مسيطرا جديدا ينقلب على من كان يسيطر عليه فى الماضى اسوة بالمستعمر القديم والثورة التى تصل إلى قلب الاوضاع ضده.

فالطفل الذى ينحرف او يمرض عقليا ينجح بطريقته الخاصة فى الانتقام من سيطرة أسرته عليه بل أنه بهذه الطريقة قد يفرض على أسرته نوعا من السيطرة. فبحكم مرضه قد يلزم أمه بالبقاء معه ورعايته أو العمل ساعات للانفاق على علاجه. بينما الأسرة التى لا تفرض سيطرتها بهذه الصورة المتطرفة قد تنجح فى التحكم فى طفلها على الأمد الطويل مقابل تنازلات تقدمها له فى الأمد القصير.

ونستطيع أن ننتقل بالمثال إلى حياة الفرد النفسية. فالفرد الذى يصر على التمسك بالحياة فى صورة الانهماك المستمر فى العالم الخارجى وينكر الرغبة فى الموت فيأخذ صورة الحاجة إلى الانطواء والانعزال والراحة، هذا الفرد يمارس سلطة ديكتاتورية من جانب نفسه على جانب آخر، وينجح بهذه الطريقة فى فرض سيطرة محكمة على هذا الجانب. ولكنها سيطرة متطرفة وقصيرة الأمد تنتهى بأن يحدث الانقلاب المضاد آجلا، ويفرض الجانب المقهور وجوده فى صورة الجنون أو غير ذلك. ويصور لنا Goethe هذه المأساة فى مسرحية «فاوست» حين يتعاقد فاوست مع الشيطان ويعطى الفرصة لهذا الجانب من نفسه أن يظهر بصورة عارمة بعد هذه السنوات التى فاتته من الكبت. ويختلف الأمر حينما يستطيع الفرد أن يحصل على

درجة من التعادل بين جوانب نفسه المختلفة فالجانب المسيطر كلما قلت حدة سيطرته كلما طالت مدة استفادته من الجانب المسيطر عليه وكذلك نوعية هذه الاستفادة، كما ان الانقلاب اذا حدث سوف يكون أقل حدة ولن ينتهى إلى دمار الاثنين معا.

ان الذى نتبينه هنا هو أن الصراع بين الأضداد لا ينتهى الا بقبول وجوده. وقبول وجوده يعنى قبول كل من الطرفين، أى الجانب المسيطر والجانب المسيطر عليه. فكل طرف يريد أن يلغى الاخر ولكن كلما زادت حدة الرغبة فى القضاء على الآخر كلما زاد احتمال أن يصبح الطرف المسيطر مسيطرا عليه وكلما قلت حدة الرغبة كلما قلت فرص الانقلاب وتحولت إلى مجرد تبادل للادوار ذى تأثير متبادل وربما بناء بين الطرفين.

أى ان الاتجاه الذى نشهده هنا هو اتجاه نحو الاعتراف المتبادل الكمى[1] تغييرا نوعيا، ولعل الصفة الغالبة لمثل هذا التغيير يمكن التعبير عنها بكلمة «التحرر» Liberation وهى مساوية لتعبيرات اخرى مثل اللا ارتباط Non-attachment. ويجب الا نخلط هنا بين مفهوم كثيرا ما يختلط بهذا المفهوم ويوصف بكلمات مشابهة مثل الحرية والفوضى والانحلال والحياد والوسط ورغم ان التشابه ظاهرى الا أن الفرق جوهرى. ولعل سر اللبس فى المعانى يأتى من اننا ما زلنا نرتبط بجانب من الصراع. ونتوهم أن التحرر هو تحرر لهذا الجانب على حساب الجانب الآخر بينما التحرر بمعناه الكامل يعنى القدرة على فك الارتباط بين كل من الجانبين دون أن نتحيز لطرف أو نتحول إلى طرف جديد فى صراع جديد. أى التحرر من حلقة الصراع وليس من طرف فيه.

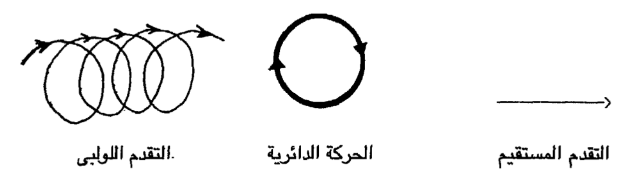
وليس المقصود من محاولة تحديد هذا الاتجاه ان نفتعل هدفا يفرض من الخارج

على القارئ بقدر ما هو محاولة لرؤية الواقع كما هو بجميع أطرافه، أى أن الهدف هنا مجرد مشاهدة لما يحدث واستنتاج أنه بطبيعة الأمور هناك صراع. والصراع به ألم. والألم يدفع صاحبه نحو حل الصراع للتغلب على الألم وحل الصراع لا يأتى طالما صاحب الشأن يأخذ جانبا من جوانب الصراع ويحاول الغاء الجانب الآخر. انما يأتى بقبول جانبى الصراع وهذا بالتالى يؤدى إلى تقريب طرفى الصراع. أى أنه اذا قلنا ان الانسان يسعى نحو التحرر فهذا لا يعنى اننا نقول أن التحرر فضيلة يجب السعى نحوها بقدر ما نقول ان هذه الرغبة فى التحرر هى أيضا جزء من الواقع الذى نقبله.

بقى السؤال عن امكانية الوصول إلى التحرر أو بعبارة اخر هل توجد حالة تحرر بالمعنى المطلق ؟ والرد هنا لا ضرورة له فالذى نستطيع أن نؤكده فعلا بدون الحاجة إلى الدليل. أى بفعل الايمان البحت هو اننا نعى الرغبة فى التحرر (وقد نعبر عنها بصورة وصيغ مختلفة). وقد نلجأ إلى اثبات وجود التحرر كقيمة ممكنة التحقيق باللجوء إلى المنطق الذى يقول ان وجود العطش دليل على وجود الماء فنقول ان الرغبة فى التحرر تعنى وجود التحرر كقيمة نطلبها، ولكن حتى هذا لا ضرورة له فالواقع الذى نشير إليه اشبه بالواقع النفسى الذى يؤكد وجود الشىء بغض النظر عن وجوده فى حد ذاته، فالماء مثلا قد يكون له وجود لذاته الا أن وجوده لذاته لا يعنى شيئا كوجود الا من خلال من يعى هذا الوجود، وهو وعى ينبع فى حالة الانسان من دافع الاحساس بالعطش والحاجة إلى الماء. وهكذا فان التحرر بغض النظر عن طبيعته ومحاولات وصفه فى حد ذاته لا يعنى شيئا الا من حيث أننا نسعى إليه ونعى وجوده بشكل أو آخر.

اذن نستطيع ان نلخص القول بأن هناك سعيا نحو التحرر وانه رغم الشكل

الدائرى الذى تأخذه محاولات التحرر فان هناك تغييرا كميا يتحول بعد درجة ما إلى تغيير نوعى. ولعل اقرب تشبيه لمثل هذا التقدم الذى لا هو مفتوح الاتجاه كالخط ولا هو محدود كالدائرة هو الشكل اللولبى أو الحلزونى.



التقدم المستقيم الحركة الدائرية التقدم اللولبى.

ولعل هذا التشبيه يكون مقاربا بشكل ما من بعض نظريات الطبيعة فى نظريات الكمات Quantum theory حيث أنه فى تفسير طبيعة الضوء بين كونه موجات متكررة وثابتة (الخط المستقيم) وبين كونه كمات منفصلة (دوائر مستقلة) والتفسير الاحدث هو أنه جماع بين هاتين، اى عبارة عن كمات من الموجات وهذه النظرية تفسر ظاهرة انحراف اشعاعات الضوء عن الخط المستقيم الذى كان هو التصور الغالب.

وسوف نجد أيضا فى مجالات النفس البشرية ما نستطيع تشبيهه بهذه التطورات فى علوم الطبيعة وسنشير إليها بالمزيد فيما بعد ولكن لو أخذنا النمو النفسى للانسان لوجدنا هذا الحوار بين كون النمو عملية مضطردة بانتظام استقامى وكونه مراحل منفصلة وسوف نجد نفس الاتجاه إلى الجماع فى تفسير النمو النفسى خاصة فى وصف اريكسون لمراحل نمو الانسان.

التطور والطب النفسى :

اذا كان اتجاه التطور نحو المزيد من التحرر فما هو مكان الطب النفسى ودوره فى ذلك؟

من حيث الشكل العام نجد أن الانسان فى تقدمه يتغلب على مشكلة اشباع احتياجاته الاساسية وهى فى الدرجة الاولى الاحتياجات البيولوجية التى تشمل الطعام والجنس والمسكن والنوم والهواء. ورغم ما يوجد من قصور فى اشباع هذه الاحتياجات على مستوى الجنس البشرى فان قدرة الانسان على مجابهة هذه المشاكل اصبحت فى نطاق الممكن. ويأتى فى الدرجة التى تتلو ذلك الاحتياج إلى الأمان والاستقرار وهذا ما نجده فى صورة الاشكال التى تأخذها الأسر والمجتمعات من حيث توفيرها لافرادها كالحماية من الألم والأضرار المادية بصفة عامة. ويأتى بعد ذلك الحاجة إلى الانتماء بمعنى الحاجة إلى أن يشعر المرء بأنه محبوب ومرغوب فيه. ثم بعد ذلك تأتى حاجة الانسان إلى الحب. فبعد أن يستقر ويأمن فهو فى حاجة إلى أن يكون علاقات تتميز بالدفء والتقبل والمشاركة. تتلو ذلك مرحلة يواجه فيها المرء احتياجاته على مستوى أعلى وهى الحاجة إلى التقدير أى أن يشعر أن الآخرين يقدرونه ويعطونه قيمة واهتماما. وفى النهاية وحينما يتحدد الانسان من كل الاحتياجات الأساسية فهو يسعى إلى ما يمكن ان نسميه تحقيق الذاتSelf- actualization وهى تعتبر بداية أعلى مراحل التطور فى الانسان حيث يسعى إلى معرفة وتذوق الجمال فى نفسه وفى العالم المحيط به ويساهم فى الاضافة إلى تلك القيم فيترك عالمه أفضل مماوجده عندما دخله بغض النظر عما اذا كانت أعماله تجلب له الاشباع البيولوجى أوالامان أوالحب أو الانتماء أو التقدير (وهى وان كانت تجلب له كل هذا فهى كثيرا ما تتناقض معه كما

وجدنا فى حالات سقراط والمسيح وموزار وغيرهم).

ونحن نستطيع أن نرى كيف يمكن أن ينهمك الانسان فى كل مرحلة من تلك المراحل متجاهلا أية مرحلة لاحقة فالذى يسعى وراء احتياجات الغذاء أو الأمن من المخاطر لا يعطى أهمية المستميت الذى لا يبالى بآلامه أثناء المعركة وهنا فلا حاجة ملحة إلى الطبيب النفسى، وان كان ثمة حاجة إليه أو إلى الطبيب العضوى على أفضل تقدير، فانها لا تعدو أن تكون حاجة من يريد التضميد المؤقت حتى يستطيع مواصلة معركته، فهو لا يجد الوقت للتأمل أو التفلسف والحيرة. واذا انتابته مثل هذه الحالات فان مطلبه هو كيف يتجنبها أو يخفيها. اننا نرى مثل هذا الوضع على جميع المستويات : فعلى المستوى البيولوجى نجد أن الكائنات الحية طالما هى منهمكة فى معركة البقاء فهى قلما تنمى القيم الجمالية وانما تكون الاسبقية لديها للقيم الوظيفية ذات الأمد القصير (باعتبار ان القيمة الجمالية لها وظيفتها فى الأمد الطويل) وعلى مستوى المجتمعات نرى كيف تكون القوة بالمعنى العسكرى والاقتصادى هى صاحبة الأسبقية على الفن والثقافة طالما هناك معركة بقاء. وعلى مستوى الفرد فاننا نجد ان الفرد طالما هو مضطر للسعى وراء رزقه اغلب الوقت فهو قلما يتفرغ للتأمل أو الجمال فلا يعقل ان ننتظر من المرء الذى تلح عليه احتياجاته المادية الأساسية ان يتوجه إلى ما هو اسمى من ذلك فالله سبحانه وتعالى يتوقع من بنى قريش ان يعبدوه ولكن بعد ان أمن لهم تلك الاحتياجات : «فليعبدوا رب هذا البيت، الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف» (١)

وفى هذه الحالات جميعا فان الطب النفسى يعتبر رفاهية بل انه قد يعتبر أداة للهروب من المعركة (فى البوذية يصفونها بالهروب فى النيرفانا). وكثيرا ما أتهم الطب

---

(١) سورة قريش

النفسى بأنه يخلق المبرر لمن يريدون الهروب من معركة الحياة تحت راية العلاج النفسى.

الا ان المراحل بحكم التعريف تعتبر مراحل ولها نهايتها ولا مناص من أن تنتقل إلى التى تتلوها فلا يعقل أن يستمر الفرد مثلا فى معركة من أجل الرزق طيلة عمره وخاصة اذا ما انتفت الدواعى الخارجية التى تحتم عليه هذه المعركة فكثيرا ما نجد أفرادا يكدسون المال أكواما ويطمعون إلى المزيد من السلطة رغم حصولهم على ما يكفى احتاجاتهم ولكنهم يصرون على الاستمرار فى هذا الطريق. وهنا لا مفر من مفترق للطرق فاما ان يستمروا فى التشبث بالمرحلة بعد انتهاء وظيفتها ويكبتون نداء المرحلة التالية واما أن يعيدوا النظر فى طريقة تكيفهم فينتقلون إلى المرحلة التالية.. وفى كلتا الحالتين هناك أزمة نستطيع ان نسميها أزمة تطور وهى ازمة أشبه بالنقلة بين الموت والميلاد الجديد اذ ان طريقة التكيف القديمة تموت بكل ما يصاحبها من خواص الشخصية، وتولد طريقة جديدة للتكيف وما يصاحبها من خواص جديدة للشخصية. ومع الميلاد الجديد تظهر آلام الولادة. وفى أزمة التطور هذه يظهر الطبيب النفسى كمولد ومساعد للطبيعة أكثر منه كمعالج. واذا كان التحول المؤقت لطب النساء والتوليد قد جعل من الحمل مرضا ومن الولادة عملية جراحية لعلاجه فان نفس هذا التحول نجده فى الطب النفسى حينما يرى فى التطور مرضا والعلاج الطبى النفسى عملية توليد صناعية أقرب إلى الاجهاض (وربما منها للحمل من أصله) منها إلى التوليد.

الا أن آلام الولادة كثيرا ما تشبه آلام الاجهاض أو ربما آلام أية مرحلة مرضية أخرى. وهنا لا مفر للطبيب النفسى من ان يمارس الدور الطبى التقليدى ازاء الحالات

التى يكون فيها علم الميلاد الجديد أكبر من قدرة تحمل صاحبه له الذى يتحول هنا الى مريض بالضرورة من واقع انهزامه أمام الألم (وللطبيب مبرره هنا للمارسة درجة من الوصاية الابوية والعلاج القهرى) بينما فى حالة الازمة التطورية نجد الطبيب، فى حاجة إلى دور الحكيم أو الفيلسوف وعلاقته بمريضه (ان جاز هذا التعبير) أقرب إلى علاقة رفيق فى الطريق توجد فيها درجة لا بأس بها من الندية والمشاركة والتبادل. وهو يثرى من هذه العلاقة ويمارسها مختارا حتى ولو كان فى أكثر الاحيان يتقاضى أجرا (الذى يكون فى هذه الحالة أقل الحاحا). والحالتان تمثلان نمطين فى فهم المريض : النمط الطبى التقليدى والنمط التطورى أو نمط النمو Growth model. وقدرة المعالج على الرؤية من خلال النمطين تجعله اقدر على عدم الخلط بين نوعيتى الألم – ألم الولادة وألم الاجهاض – وبين نوعيتى التأزم – الازمة التدهورية والازمة التطورية – وبين صرخة الاقبال على الحياة وصرخة الخوف من الموت.. وبواسطة هذا الفهم فانه يستطيع ان يعاون من يطلب معونته فى الاتجاه الذى يختاره طالب المعونة بدلا من فرض اختيار عليه من الخارج.

والمريض الذى يختار الهزيمة والاستسلام ويحتاج إلى من يعينه، يحتاج إلى هذه النوعية من المعاملة بينما الذى يختار التحرر يحتاج إلى من يستطيع أن يحترم هذا الاختيار. فاذا عمم المعالج وأعطى الجميع نفس المعاملة فانه فى الحقيقة ينكر وجود نوعية ما من المرضى وهو بالتالى يفرض عليهم اختيار الامر الذى يزيدهم مرضا بان يزدادوا اعتمادا عليه.

ما قيمة الاسماء

هذى اسمها زهرة

سمها ما تشاء

سوف تبقى عطرة

شيكسبير (روميو وجولييت)



What's in a name ?

That which we call a rose

By any other name would smell as sweet

Shakspeare " Romeo and Juliet "

الفصل الثالث

الجهاز النفسى والتكيف

من منطلق الاساس النظرى الذى أوضحناه فيما سبق نستطيع ان نتقبل التباين فى النظريات الموجود لدى علماء النفس البارزين اذ كثيرا ما نجد ان الاختلافات وهمية ولا تعدو ان تكون اختلافات فى الاسماء لا غير.

فاذا حاولنا فهم الشخصية من منطلق الصراع بين الاضداد والجماع الذى يجمع بينهما لوجدنا هذه النغمة تتكرر فى النظريات المختلفة. وسنبين ذلك فى بعض الأمثلة. الا ان ذلك لا يعنى ان يكون الطالب بدون نظرية يرتكن إليها فيصير عائما متنقلا بين نظرية واخرى فالافضل له أن يحدد لنفسه قاعدة انطلاق نظرية تكون بمثابة الوعاء الذى ينتقل بوسطته إلى المعرفة الكلية. اذ أن المعرفة الكلية وهى تشمل الوجدان والعقل والتطبيق جميعا لا غنى لها عن أحد عناصرها وهو العقل وبالتالى لا غنى لها عن الوعاء النظرى. واذ كنا فى هذا الكتاب نلتزم بقاعدة نظرية معينة وهى نظرية التحليل النفسى الحديث فليس ذلك لانها تمثل الصواب وما دونها خطأ ولكن لأنها لغة كثر استعمالها وغنية بالابجاث والكتابات، علاوة على أن من خلال هذا الانتشار تعرضت لتأثيرات شتى مما أعطى مفاهيمها قدرة على التطور تجاوزت حدود الألفاظ التى كانت تنغلق فيها أحيانا.

الاطروحة : - أريد أن أفعل ما أشاء :

نستطيع أن نرى صراع الأضداد فى نظرية التحليل النفسى للشخصية لقد سلمنا أنه فى البداية كانت الغرائز عبارة عن خزان من الطاقة الهائمة الفوضوية تسعى إلى الاشباع دون اعتبار لواقع مادى أو حضارى منطقها بدائى لا يتبع خطا واضحا ولا نظاما.. انها الفوضى بعينها.. صحيح أنها مولد للطاقة لكنها من الجائز ان تكون مدمرة هدامة أو تكون خلاقة مبدعة.. طاقة ينتج عنها اللعب واللهو والمرح أو الفن والشعر والجمال.. وقد سميت هذه المنطقة من الشخصية بـ «الـ هو» و «الـ هى»، و«الغرائز» ID. وتمشت هذه النظرة الفرويدية الكلاسيكية مع مفاهيم علماء الطبيعة آنذاك والمبنية على مفاهيم نيوتن Newton و هلمهولتز Helmholtz. وهى تضع الطاقة (الغرائز) فى مواجهة المادة أو التكوين (الانا والانا الأعلى) الا ان هذه المفاهيم تغيرت فى كل من الطبيعة وعلوم النفس. ففى علوم النفس نجد التيارات المخالفة للتحليل النفسى تقوم بدور المنشق عليه فترفضه مؤكدة أن الانسان كل وليس أجزاء وشخص وليس مجموعة أجهزة نفسية. فهذه نظرية التحليل التفاعلاتى Transactional analysis الذى أسسها اريك بيرن Eric Berne تصف الشخصية على أنها وحدة واحدة. فيه ذات أو أنا تتواجد فى حالات مختلفة Ego states وكانت الحالة البدائية المقابلة للغرائز عند فرويد هى حالة الانا الطفولية Child ego state (للاختصار Child أو C). وهذا فردريك بيرلز Perls وهو أحد مؤسسى مدرسة العلاج الجشطالطى يستخدم لفظ «فرفور» under - dog وهى تعنى المغلوب على أمره ولعلها تشبه لفظ «فرفور» فى اللغة الدارجة. وهو هذا الجانب من الشخصية الذى يمنع من الظهور ويحرم من التعبير (في مقابل

«السيد» أو Top - dog. ونجد لانج Laing اقتباسا من وينيكوت Winnicott يتحدث عن النفس الحقيقية True self وهى النفس البدائية الطبيعية التى ينشأ بها المرء قبل أن تفرض عليه القيم الخارجية بل اننا نجد فى تراثنا وصفا لهذا الجانب من الشخصية فى فكر الفيلسوف الصوفى الاسلامى الامام الغزالى حينما تكلم عن النفس الامارة بالسوء.

وفيما يبدو ان اعتراض كل مجدد لم يكن على الفكرة ذاتها وانما على ما أصاب الفكرة من جمود بعد أن فقدت محتواها الوجدانى ازاء انتقالها من وجدان وعقل مكتشفها إلى عقول تلاميذه دون وجدانهم. اذ ان كل اكتشاف جديد لا يعدو ان يكون صياغة جديدة للاكتشاف الاصلى ولكن بالفاظ جديدة رغم اصرار المكتشف على أن اللفظ الجديد هو تعبير عن معنى جديد الا انه فى الحقيقة معنى جديد بالنسبة للفظ الذى فقد معناه الحقيقى نتيجة سوء الاستخدام.

وتأتى المدرسة البريطانية للتحليل النفسى التى تعرف بنظرية علاقات الموضوع Object - relations Theory التى ساهم فى بلورتها فيربيرن Fairbairn وجنتريب Guntrip وغيرهما فى محاولة للحفاظ على التراث التحليلى فتخلق جماعا بين نظريات يونج Jungوفرويد Freud من جانب وبين ميلانى كلاين Klein والفرويديين الكلاسيكيين (مثل أنا فرويد). كما أنها تأثرت وأثرت بدورها على بعض المحللين الوجوديين أمثال لانج Laing وكوبر Cooper وغيرهم. تقول هذه النظرية ان الذات فى البداية كانت وحدة بدائية متكاملة الا أن تفاعلها مع البيئة أو المواضيع الخارجية أصابها بالانشقاق الداخلى. فالذات لا وجود لها بدون موضوع والداخل لا شكل له بدون الخارج. وبحكم وجود

التناقضات والصراعات فى الواقع الخارجى فان الصورة المقابلة لذلك تأخذ وجودها داخل الشخصية فى صورة انشقاقات للذات Ego - splitting . فاذا أخذنا الشكل الاولى للذات فان المرحلة الاولى كما ذكرنا تتصف بالغرائز التى تبحث عن الاشباع وتكون مدفوعة بقانون البحث عن اللذة وتجنب الألم. هذه هى الأنا الليبيدية Libidinal ego تجد المقابل لها فى العالم الخارجى فى صورة الموضوع المثير Exciting object الذى يكون بمثابة الداعى إلى الاشباع والمغرى بالتعبير عن الرغبات فاذا كانت الام هى ذلك الموضوع فالطفل يرى فيها هذا الجانب المشبع المثير والمغرى بالتعبير. فهذا الذى كان يسمى عند فرويد بالهو كجهاز مستقل اصبح – علاقة بين اثنين : الانا الليبيدية والموضوع المثير Libidinal ego - Exciting object . ولا يكتفى بهذا الوصف انما تذهب النظرية إلى أبعد من ذلك فتصف الموضوعات الداخلية Internal objects والذى يحدث بواسطة الاستدماج Introjection فالانا الليبيدية فى علاقتها بالموضوع المثير الخارجى خلقت وجودا داخليا لهذه العلاقة. وقد يستمر هذا الوجود خافتا أو مع ازدياد حدته يتحول إلى جسم غريب بالداخل وقد لا يحتمل فيسقط مرة أخرى على الخارج ويتصور المرء ان العالم الخارجى يغوية ويثير غرائزه. نعود فنقول ان هذه هى الاطروحة : رغبات ودوافع غريزية تسعى إلى الاشباع. الا ان وجود الرغبة لابد وان يفترض وجود ما يمنع هذه الرغبة من الظهور وهنا تأتى الاطروحة المضادة.

الاطروحة المضادة، - يجب أن أفعل ما تشاء :

ما هذا اذن الذى يمنع الغرائز من الاشباع؟ بل هل لابد ان يوجد ما يمنعها من الاشباع؟ أو ليست الجنة ان يفعل المرء ما يشاء (أو يشاء ما يفعل - فالمهم أن يكون هناك انسجام وانعدام للصراع وبالتالى انعدام للالم والاحباط والخوف). ولكن الجنة أمنية. وهى بحكم التعريف لا توجد فى الدنيا. وبالتالى فانه طالما الكائن حى أى فى هذه الدنيا. فان ما يرغبه لابد وان يقابل ما يمنع من تحقيق هذه الرغبة. لعلها الرغبة المضادة التى تقول للغريزة «لا» وتمنعها من الانطلاق العشوائى.

ما هو هذا «النظام» ازاء «الفوضى» الغرائزية؟ أو «الشكل» فى مقابل «الطاقة»؟.. يصف فرويد تطور الجهاز النفسى من الهو البدائى الذى لا يقدر الواقع حق تقديره فيصطدم به. اذ ان هناك استحالة ان يفعل الطفل ما يريد وهو ابعد ما يكون عن القدرة على مجابهة الواقع المادى المعقد الذى يعيش فيه فالطفل الانسانى - اكثر من غيره من الكائنات الحية.. يولد ضعيفا هزيلا لا يستطيع اطعام نفسه او تحريكها او حمايتها من المخاطر الطبيعية. وهو يجد هذه الحماية من أمه أساسا التى تطعمه وتأويه وتحمله وتوفر له الراحة والنوم. وما عليه الا ان يطلب الطعام فيأتيه وان يرغب فى النوم فيترك لحاله. ولكن الواقع ليس تحت أمره بهذه الدرجة المحكمة فقد يجوع ويطلب الطعام فلا يجده فى لحظتها وليس عنده من رصيد خبرة عن مرور الزمن ما يجعله يؤجل رغباته أو ينتظر. فيتصور ان اللحظة ابدية ويصاب بالذعر. ولهذا يبكى بشدة لمجرد ان يتأخر عنه الطعام ولو للحظة. فهذا الاحباط والالم لا يحتملان، ويتعلم الطفل كيف يمنع رغباته من مداهمته بهذه الدرجة.

انها الرغبة المضادة تتكون تدريجيا داخل نفسه نابعة من وجود واقع محبط وليست فى عزلة عن هذا الواقع الخارجى. هذا الجهاز النفسى سماه فرويد «الانا الاعلى» Super ego وهو ليس مرادفا للضمير الذى لا يعدو ان يكون هذا الجزء من الانا الاعلى الذى يصل إلى درجة الوعى. اذ ان الانا الاعلى لا شعورى وهو بالتالى يخضع لمنطق مشابه للهو من حيث انه لا شعورى وبدائى. بل انه أشبه بالصورة المعكوسة للهو، ويستمد قوته منه. فالانا الاعلى يتميز باللامنطق فى متطلباته وهو يغالى فى القسوة أو الطيبة.

انه يقابل عند بيرن حالة الذات الابوية Parental ego state أو للاختصار يرمز إليه بـ P. بينما يتحدث بيرلز عن «الفتوة» أو «السيد» Top - dog ويتحدث لانج عن النفس الزائفة False self والتى تتكون بدافع الرغبة فى ارضاء الآخرين على حساب التلقائية. كما اننا نجد المقابل له فى وصف الامام الغزالى للنفس البشرية فيصف هذا الجانب بـ «النفس اللوامة» وهى مرحلة متقدمة على النفس الامارة بالسوء.

أما نظرية علاقات الموضوع فانها تستخدم تسمية «الانا الليبيدية المضادة Antilibidinal ego ولعل ما تضيفه هذه النظرية انها تتحدث عن الاجهزة الداخلية فى تقابل مع الواقع الخارجى فالانا الليبيدية المضادة تقابل فى الخارج الموضوع المحبط Frustrating object وهما فى تفاعل مستمر يغذى كل منهما الآخر. فالموضوع يحبط الذات بأن يمتنع عن اشباعها فيتكون داخل الذات هذا الجزء المنشق فى صورة الانا الليبيدية المضادة فى علاقة داخلية ايضا مع الموضوع الذى يصبح له تمثيل داخلى بواسطة الاستدماج وهو ان يبقى فى داخل النفس فى صورة جسم غريب مندمج تماما مع بقية الشخصية فهو يكون بمثابة موضوع داخلى

شبه مستقل. وكلما زاد الانشقاق كلما زاد الصراع الداخلى وبالتالى الألم والمرض. وحين لا يطاق الجسم الغريب بداخل الشخصية فانه يكبت ويبعد عن الشعور الا ان الحاجة تجعل من الضرورى ان تلجأ الشخصية إلى وسيلة اخرى للتخلص من هذا الجسم الغريب وهنا تلجأ إلى عملية الاسقاط Projection بأن تضفى صفات هذا الجسم الغريب بالداخل على العالم الخارجى فيتصور المرء ان الاضطهاد او الاحباط أو غير ذلك من الصفات الموجودة بداخله انما هى صادرة من الخارج فى مقابل الاطروحة.

هكذا تتكون الاطروحة المضادة : التحكم فى الغرائز وينشأ الصراع بينهما ولكن بتركهما وحدهما فكل نقيض يريد القضاء على الآخر فى نفس الوقت الذى يكون فيه وجوده مرتبطا بوجود الآخر فكلاهما لا مناص له من وجود نقيضه مع الحاجة إلى الغاء ذلك الوجود. ومن هنا جاءت الحاجة إلى الجماع الذى يستطيع ان يحويهما.

الجماع – أشاء أن أفعل ما يجب :

افترضنا فيما سبق أن الرغبة تقابل برغبة مضادة وان هذه الاضداد لها ما يمثلها فى نظريات الشخصية التى اشرنا إليها بل بعضها ممثل منذ قديم الازل وهذه الاضداد انما هى مظهر من مظاهر تطور المفاهيم كما بينا من ان الشىء يولد ضده فى صراع ثم يولد الحل فى قبول الصراع. فما هذا الجماع الذى يجمع الشىء وضده فى النفس البشرية؟

هنا نجد وصف الانا (أو الذات) بصفتها الجهاز النفسى الذى يتوسط بين الداخل

والخارج. الداخل بمحتواه من الهو والانا الاعلى والخارج بمواضيعه المختلفة أى العلاقات الانسانية. والانا كما لو كان فى وساطته هذه يخدم عدة قوى متناقضة : الواقع فى الخارج والغرائز والانا الاعلى فى الداخل فهو اذن أداة التكيف مع البيئة ويحوى لهذا وظائف التكيف المختلفة ومنها : الذكاء والذاكرة والحكم على الامور والتفكير التجريدى واختيار الواقع والادراك والاحساس بالواقع علاوة على القدرة على تكوين العلاقات والحيل الدفاعية المختلفة التى بواسطتها يحمى النفس من المداهمة بواسطة الغرائز. وقد كان الرأى فى البداية ان الذات تتكون من احتكاك الغرائز بالواقع الا ان الاتجاه الحديث فى التحليل النفسى والذى يعرف بسيكولوجية الانا Ego - psychology اعطى أهميةلما يسمى بدائرة الانا الخالية من الصراع Conflict free ego sphere - وهو الذى يحوى تلك الوظائف التى تتكون بغض النظر عن الصراع أو الاحتكاك بين الغرائز والعالم الخارجى ولكن بحكم النمو والنضج البيولوجى الطبيعى. ولعلها ليست مصادفة ان يأتى الاهتمام بوظائف الانا فى تاريخ التحليل النفسى بعد الاهتمام الاولى بالغرائز عند فرويد ثم اهتمامه بالانا الاعلى ثم الانا. وإذا كان الهو يمثل الرغبة الغريزية البيولوجية والانا الاعلى تمثل الرغبة المضادة والتى تتكون من احتكاك الغرائز بالواقع الخارجى وبالتحديد الواقع الانسانى الاجتماعى وكان الانا هو الوسيط بين هذا وذاك من جانب وبينهما كعالم داخلى وبين العالم الخارجى فانه لا مناص من تطور مفهوم الانا لكى يكون الجماع الذى يوفق بين الاضداد وهو لهذا فى تطوره يقترب تدريجيا كلما نجح فى الجمع بين هذه الاضداد أو ان يتعامل معها كما هى بدون الحاجة إلى تشويه أو تحريف. أى أن نجاح الانا فى ان يكون جماعا حقيقيا للاضداد يتوقف إلى حد كبير على تخليه عن وظائفه الدفاعية مع

تنمية الوظائف الاخرى الخارجة عن دائرة الصراع وبهذا فانه يتعامل مع الواقع كما هو ويتكيف بطريقة أفضل بدلا من فقدان طاقته فى التوفيق بين الاطراف الداخلية المتصارعة. وهذا بالطبع يتوقف على قدرته على ان يكون مترجما صادقا لرغبات الاطراف المختلفة. فتجد الغرائز من خلاله وسائل للتعبير لا تتعارض مع الرغبات المضادة فى الانا الاعلى أو مع حدود الواقع الخارجى.

واذا كنا فيما سبق نؤكد حتمية الصراع ووجود الأشياء فى صورة اضداد فكيف يمكن للانا ان يوفق بهذه الصورة. ان نهاية الصراع كما بينا يأتى بقبول وجوده الا ان هناك جانبا آخر لتطور الصراعات وهو التطور فى شكل الصراع فالصراع فى مفهومه البدائى يعنى رغبة جانب فى التغلب المطلق على الجانب الآخر فيأخذ الشكل المدمر وذلك لكون الطرفين على طرفى نقيض فيأخذ الصراع شكل أن ما يكسبه طرف يكون خسارة للطرف الآخر win - lose , zero - sum أى نمط الخسارة – مكسب» ولكن هناك شكلا آخر للصراع حيث يمكن ان يتحول الصراع إلى مكسب للطرفين أو ما يعرف بنمط «المكسب – مكسب» أو «win-win, sum-sum » أى نستطيع ان نقول ان الصراع يصير فى اتجاه الانتهاء بأن يأخذ طريق الاضمحلال الكمى وذلك بأن تخفف حدته ويتغير شكله فالصراع العنيف يتغير إلى صراع محكوم ثم صراع هادئ ثم حوار ثم تعاون. واللعبة التى تتصف بالمكسب – خسارة تتغير إلى لعبة مكسب – مكسب مع تقارب درجة المكسب فى الطرفين وذلك أسوة بحركة البندول من نقيض إلى نقيض مع الاقلال من درجة التأرجح حتى تقترب من نقطة السكينة التامة فى الوسط.

ولعل هذه المحاولة البدائية التى يتولاها الانا للوصول إلى حالة من الوفاق بين

الاضداد عن طريق تخفيف حدة الصراع هو الذى يعبر عن مبدأ الثبات Constancy بينما الوصول إلى انعدام الصراع تماما هو ما يتمثل فى مبدأ النيرفانا Nirvana والذى يعتبره فرويد تعبيرا عن غريزة الموت وهو يتفق مع النظرة إلى ان السكينة التامة أو الجنة لا توجد فى الدنيا انما هى فى الآخرة بعد الموت. كما ان ذلك يتفق مع استحالة الانعدام التام للصراع فى وجود الحياة فالنفس المطمئنة تماما هى التى تنطبق عليها الآية «يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية» (١). فالوجود على قيد الحياة مرتبط بالالم والوجود يسعى إلى التغلب على الالم والتغلب النهائى على الالم يساوى الموت. فرغبة الحياة كما تصورها فرويد اوصلته بعد سنين من البحث إلى أنها تقابل رغبة الموت.

نعود إلى وضع الانا فى الصراع فاذا كان الانا فعلا قد توصل إلى السكينة التامة وخرج خارج دائرة الصراع وأصبح بفضل نضجه متطورا مطمئنا تماما وبالتالى تساوى مع الموت فما هو وضع الانا فى الحياة أى : هل يمثل جانبا من جوانب الصراع أو ينحاز إلى جانبه؟ إن التحليل النفسى قد وصف الانا فى البداية كما لو كان اطارا او تكوينا نفسيا. structure بدون طاقة وانه يستمد طاقته من الغرائز أسوة بالانا الأعلى. ثم صور كيف ان الطاقة الغريزية أو الليبيدية تشحن الانا أو أجزاء منه بالطاقة وكيف ان الانا ينحاز إلى جانب ضد اخر. بل كيف ينشق وينحاز جزء منه إلى جانب وجزء إلى جانب اخر.

بهذا المعنى فان الانا كجهاز نفسى يعتبر تطورا للأجهزة البدائية نحو التعالى عليها وتجاوزها لغم انبثاقه منها.

---

(١) سورة الفجر

ولعلنا نستطيع هنا ان نشير إلى بعض النظريات الاخرى فالتحليل التفاعلانى يسمى هذا الجماع حالة الانا الراشدة او adult ego state او مجرد الراشد adult وللاختصار (A) والذى يمثل ايضا العقل البحت وذلك فى حالة انعزاله عن الطرفين او تحوله إلى طرف فى الصراع معهما.

كما نجد هذا الجمع عند الوجوديين يأتى تحت وصف الوجود الصادق Aughentic Existence ويتحدث الامام الغزالى عن النفس المطمئنة (١) وهى تمثل ذلك الوجود الذى يتعالى على الصراع وفى نظرية علاقات الموضوع نجد استخدام لفظ Central ego أى الانا المركزية والذى ينشأ نتيجة للتفاعل بين الانا البدائية وبين الموضوع المثالى ideal object أى الذى لا يغرى ولا يحبط انما يستجيب حسب متطلبات الموقف أى فى حدود امكانيات الواقع.

نلخص القول بأن نعيد التأكيد أن النفس البشرية كل متكامل وان العلم العقلانى هو الذى يفتعل تقسيمها إلى أجزاء، فاذا تحدثنا عن الغريزة وجب افتراض ما يتحكم فى الغريزة، ولوجود تناقض بينهما وجب مرة أخرى ايجاد جماع يجمعهما. وسوف نجد ان الغريزة والتحكم ما هما الا وجهان لنفس العملة بينما الجماع هو الذى يحتويهما بقدر ما يتعالى عليهما. فالاجزاء كلها مصدرها من بعضها والتناقض خدعة عقلية بل أن التناقض الفكرى بين النظريات المختلفة هو الآخر وهمى، وكل باحث عن الحقيقة وان رآها واحدة فان قصور العقل هو الذى يجعله يتوهم ان ما يصفه هو فقط الذى يمثل تلك الحقيقة. والاختيار فى النهاية بين ما يصفه هو فقط الذى يمثل تلك

---

(١) يبين المحلل النفسى الامريكى الإيرانى المولد ان التراث الصوفى اسبق مما وصل إليه التحليل النفسى فيزيد عدد المستويات لتصل إلى سبع.

الحقيقة. والاختيار فى النهاية بين النظريات لن يكون محكه من منهم على حق من عدمه بقدر ما هو من الذى استطاع ان ينقل الصورة بوضوح وتكامل اكثر، ومن الذى استخدم اللغة استطاع ان ينقل الصورة بوضوح وتكامل اكثر، ومن الذى استخدم اللغة التى تستطيع التعبير لاكثر قاعدة من طالبى العلم وعلى مدى أطول مدة من الزمن.

الفصل الرابع

مراحل التطور

ان التفرقة بين التطور والتكيف تفرقة مفتعلة ولذا فالتناقض بينهما ظاهرى اذ بوسعنا ان نرى فى التطور وسيلة للتكيف ازاء عالم متغير بما ان الجمود فى الامد الطويل يتعارض مع الكيف ويؤدى إلى الاندثار، كما ان التكيف وسيلة للتطور بما ان التغير الدائم والمستمر يتعارض مع الوجود المستقر فما ان يوجد الشئ حتى يتغير شكله أى يتحول وجوده إلى وجود اخر أو يموت ويولد من جديد.

ان التطور والتكيف اذن فى حاجة مستمرة كل منهما إلى الآخر وفى تفاعل دائم، الا ان رغبة عقولنا فى التنظير والتحليل تجعلنا نقسم الاشياء إلى ثنائيات متضادة وظواهر متفرقة ومع هذا فان هذه المحاولات من جانب عقولنا يمكن أن تكون كخطوة نحو نهايتها والوصول إلى المعرفة الوجدانية الكلية وارجاع الظواهر المتفرقة إلى أصول واحدة.

واذا كنا فى هذا الفصل سوف نتحدث عن جانب بعينه وهو التطور فعلينا ان نتذكر باستمرار اصطناعية التفرقة وضرورة الربط بين الجزء والكل.

الطفل الصغير مرن متطور :

لعل الطفل فى الحوار الانسانى يمثل جانب التطور فى مقابل التكيف فهو بحكم

تحركه المستمر فى اتجاه النمو يمثل التغيير والابداع والثورة فى مقابل استقرار الاب ومحافظته.. انه الممكن فى مقابل الواقع «المتاح» والمستقبل فى مقابل الحاضر التابع من الماضى. ولو نظرنا إلى تكوين الطفل البيولوجى لوجدنا المقابل فى خلاياه غير المتميزة التى تحمل امكانيات النمو والتشكيل الجديد فبدايته غير محدودة ويستطيع ان يتطور إلى عملاق أو قزم أو نحيف أو سمين. واذا كانت جيناته الموروثة تضع له الخطوط العريضة فان امكانيات تغيير مجرى هذه الخطوط بفعل البيئة موجودة وممكنة بدرجة تكاد تكون متساوية.

واذا كانت الطفولة بصفة عامة تتحدد بفترة زمنية ضئيلة اذا قورنت بعمر الانسان الا ان وزنها يفوق كمها المحدود من حيث التأثير. وقد بين لنا التحليل النفسى أهمية الخبرات المبكرة فى حياة الانسان بل لقد ذهب فرويد إلى أن تكوين شخصية الانسان تتحدد فى السنوات الخمس الاولى.

واليوم نجد ستانيسلاف جروف Stanislav Grof يقفز إلى مرحلة ما حول الولادة ثم قبل ذلك المرحلة العابرة للشخصية او العبشخصية Transpersonal كما نرى فى الامثلة الشعبية ما يشير إلى نفس هذا الاعتقاد اذ يقال ان «الديك الفصيح فى البيضة بيصيح».

ولكن المبالغة فى هذه النظرة جعلت الأمل فى التغيير والعلاج فى الكبر يشوبه التشاؤم، وأصبح العلاج عبارة عن محاولة مطولة لاعادة الشخص إلى طفولته المبكرة واعطائه فرصة جديدة لاعادة تشكيل نفسه.

ولذا نشأت اتجاهات حديثة فى التحليل النفسى فى انشقاقات يونج Jung و أدلر

Adler تطورت وتبلورت فى تنظيرات اريكسون Erikson.

حول مراحل عمر الانسان المختلفة بادئه من الطفولة حتى الشيخوخة. فالانسان وان كان يتركز نموه فى السنوات الأولى فإنه لا يتوقف عند هذا الحد وانما يمر بمراحل متعددة بعد ذلك قد تصاحب كل نقلة فيها أزمة داخلية تهز بنيانه وتكوينه بدرجات مختلفة العنف قد ينتج عنها اعادة لتشكيل الشخصية إلى أفضل أو إلى أسوأ.

التوالد الذاتى أو تفتح الصفات الكامنة :

رغم أن وصف المراحل المتميزة قد يوحى بأنها منفصلة ومتتالية الا انها فى الواقع ليست كذلك. فسمات المراحل جميعها موجودة فى كل المراحل أسوة بوجود جميع صفات الانسان المكتمل النمو فى البويضة المخصبة. كما ان الشئ الذى يجعلنا نصف المراحل المختلفة كما لو كانت منفصلة هو ان هناك خصائص مميزة وبارزة فى كل مرحلة. فالبويضة مهما كانت محتوية لجميع صفات الانسان فهى رغم ذلك بويضة ولها صفاتها وخصائصها المحددة. والطفل مهما كان حاويا لكل صفات الراشد كامكانية فانه مازال طفلا ويتميز بصفات الطفولة. وكذلك فان العكس صحيح فالانسان مهما كبر فانه يحوى بداخله جميع الخبرات والمؤثرات الذكريات التى تراكمت عليه منذ تكوينه ولعل التعبيرات الشائعة عن كون هذا الطفل عجوزا أو ذلك كالعجوز يحمل براءة الطفولة فى عينيه تمثل المعرفة البديهية لهذه الحقيقة.

ان فكرة التوالد الذاتى epigenesis والتى تبلورت فى علم الاجنة وجدت تطبيقها فى نظريات فرويد عن الجنس وموجزها ان الذى يوجد فى البداية اساسا هو

امكانية النمو ونشوء الاعضاء والصفات المختلفة التى تميز كل عضو ولكن هذا النمو يحدث بالتراكم وفى خطوات متتالية. فاذا اخذنا الجنين فاننا نجد مثلا ان اليد لا تنشأ من البويضة ذاتها ولكنها تنشأ بعد تكوين الشكل العام للجسم وكذلك يتلو نشوء اليد نشوء الاصابع، وهكذا بالتدرج والترتيب المتتالى.

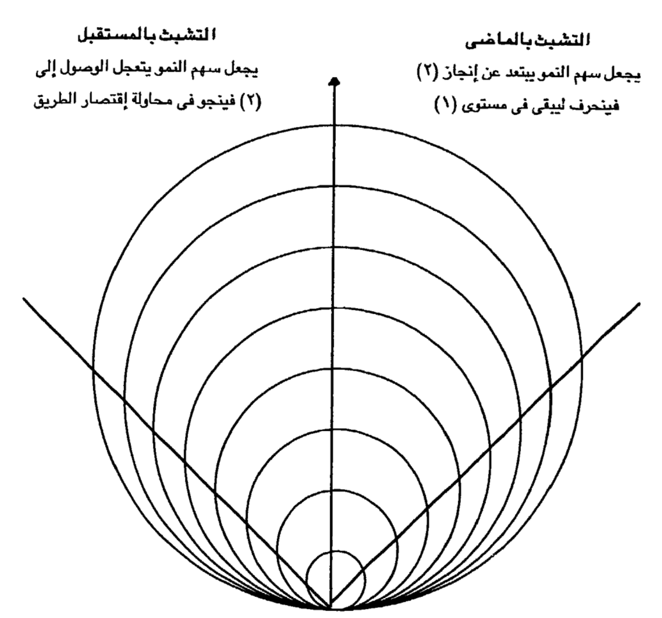
فاذا انتقلنا من هذا إلى النمو الانسانى فيما بعد ومن منطلق وصف الجوانب النفسية والاجتماعية فسوف نجد كذلك كان كل مرحلة تتميز بانجاز ما لابد ان تتخطاه ان ينتقل الفرد إلى المرحلة التالية الا ان وجود هذا التحدى للانجاز لا يعنى انعدام دور التحديات التالية او السابقة فى ذات الوقت ولكنه يعنى ان هذا الانجاز يأخذ مكان الصدارة بالنسبة لغيره، وانه كلما كان اكتماله تاما كلما كان التفرغ للانجاز التالى اكثر وكلما قل ميله لاعاقة ما يتلوه.

نستطيع ان نصور هذا التداخل فى صورة دوائر متزايدة تحتوى كل دائرة على ما يسبقها كما تحاط ببوادر المراحل التالية مع وجود غلبة لكل دائرة فى كل فترة زمنية من عمر الفرد، (وهى تعتبر بديلا للشكل الذى رسمه اريكسون فى صورة مربعات كما فى الشكل ٣-١) نجد ان المرحلة الاولى من عمر الانسان يغلب عليها تحدى الانجاز الاول (وهو كما سنفصله فيما بعد يمثل الحصول على الامان والثقة) ممثلا فى الدائرة (١) ولكن اجزاء الدائرة الاخرى كلها موجودة فى تلك الفترة الزمنية ولكن على الهوامش. وكلما كان النمو طبيعيا (فى اتجاه السهم) الرأسى فى الشكل، كلما كان تداخل الدوائر الاخرى اقل وكلما كان الانتقال للدائرة التالية اسهل. فالانتقال إلى الدائرة (٢) (وهو ما سنفصله فيما بعد يمثل الانجاز الثانى الخاص بالحصول على الاستقلال وتحديد معالم الذات فى مقابل الموضوع) يكون فى الاتجاه الرأسى بحيث

تكون الغلبة للدائرة (٢) اما اذا تمسك الطفل بالانجاز الاول واستمر انشغاله به فان نموه سوف ينحرف عن الخط الافقى بحيث يبقى للدائرة (١) درجة من الغلبة، (ونستطيع ان نمثل هذا الانحراف بسهم متجه يمينا مثلا كتمثيل للمحاولة بالاحتفاظ بمزايا الماضى). ولكن الانحراف يمكن ان يأتى نتيجة لسبب معاكس وهو ان الطفل يريد ان ينتقل قبل اوانه للدائرة (٢) فهو يتجنب انجاز الامان ويحاول الحصول على الاستقلال رغم جوعه واحتياجه للامان فهو ينحرف فى اتجاه نموه (وليكن بسهم متجه إلى اليسار كمحاولة لتمثيل الرفض المبكر للاوضاع القائمة) فانحراف النمو هنا يأتى لان هناك محاولة مبكرة للانتقال إلى المستقبل بينما الماضى لم يأخذ حقه مما يجعل الماضى يجذبه إلى الخلف وفى كلتا الحالتين - الانحراف إلى اليمين او الانحراف إلى اليسار - نجد النتيجة متشابهة من حيث ان النمو يتعطل ففى الحالة الاولى يعطله التشبث بالماضى والحنين إليه وفى الحالة الثانية نرى التلهف نحو المستقبل بينما الماضى والحنين إليه وفى الحالة الثانية نرى التلهف نحو المستقبل بينما الماضى لم يأخذ حقه فينتج عنه العودة بالتالى إلى الخلف.

							٨
						٧	
					٦		
				٥			
			٤				
		٣					
	٢						
١							

اتجاه التطور كما رسمه اريكسون : المرحلة الغالبة تمثل فى مربع ثقيل مع وجود المربعات الاخرى افقيا ورأسيا فى كل مرحلة



رسم بيانى يمثل اتجاه التطور رأسيا وكل دائرة تمثل المرحلة الغالبة وهى تحتوى المرحلة التى سبقتها فى نفس الوقت الذى توجد على جوانبها بوادر المراحل القادمة..

وهكذا بواسطة هذا الرسم (والذى يختلف عن رسم «اريكسون») نستطيع ان نرى وجود انجازات جميع المراحل فى كل زمن. ولكن الذى يميز كل مرحلة تغليب انجاز على غيره وأنه كلما اكتمل انجاز أو (دائرة) كلما سهل ذلك اكتمال الدائرة التالية واخذها مكان الصدارة.

تكرار التطور - التاريخ يعيد نفسه :

هناك مبدأ أخر يحكم التطور وهو أن الفرديكرر تطور النوع ontogeny repeats phylogeny فمثلا وعلى المستوى البيولوجى نستطيع ان نرى التشابه بين البويضة والكائنات الحية الاولية ذات الخلية الواحدة ثم نرى كيف تنقسم البويضة بعد تلقيحها إلى خليتين ثم إلى اربع خلايا وهكذا حتى وتشبه الكائنات الحية البدائية المتعددة الخلايا، ثم كيف تمر بمراحل تشبه الكائنات الحية المائية ثم الكائنات الحية الأرضية وتزداد تعقيدا حتى تقترب من شكل الحيوانات المتقدمة ولها ذيل واضح ينقرض تدريجيا حتى تقترب من شكل الانسان. فالذى يحدث فى التطور البيولوجى عبر ملايين السنين يتكرر داخل الرحم فى فترة زمنية قصيرة.

ولو تتبعنا تطور الطفل فى الانسان بعد ولادته حتى نضوجه لوجدنا تكرارا مشابها لما مر به الانسان فى تطوره الاجتماعى منذ بدأ فى الغاب حتى كون مجتمعاته الحديثة المعقدة، وهى تشبه ما وصفه علماء الانثروبولجيا والاجتماع عن تطور الجنس البشرى ومجتمعاته - ولعل العوامل التى تختصر وتعجل بهذا التطور السريع فى السنوات المحددة للطفولة والذى يكرر آلاف السنين من تطور الجنس البشرى، ولعل هذه العوامل ترجع إلى التربية وإنتقال التراث من جيل إلى جيل وان كان يونج فى نظرياته عن اللا شعور الجمعى Collective unconscious يميل إلى توارث هذه الصفات المكتسبة على مر العصور فى صورة استعدادات موروثة نعتها بالنمط الاولى archetypeويصف اريكسون فى مراحل الطفولة المختلفة نماذج السلوك المختلفة التى تطابق النظم الاجتماعية بل تساهم فى ايجادها وعلى الجانب الآخر فهو يصف النظم الاجتماعية التى تنمى فى الطفل نفس تلك الصفات. فالتفاعل بين المجتمع والفرد

تفاعل متبادل مستمر، فليس الفرد هو الذى يخلق المجتمع ولا المجتمع هو الذى يكون الفرد انما كل منهما انعكاس للآخر يتأثر به ويؤثر فيه. وهو بهذا التنظير قد أوصل بين نظريات فرويد البيولوجية التى تؤثر على التكوين النفسى للطفل بصورة فعالة ويعرفونه بالمدرسة الحضارية Cultural واحيانات بالفرويديين الجدد Neo - Freudians. وجعل من هذا التناقض تناقضا ظاهريا، فما هو موجود فى داخل نفسية الانسان كان أصله موجودا بالخارج أى فى المجتمع والبيئة ولاحضارة ولكن فى مقابل ذلك فإن ما يوجد فى الخارج كان موجودا اصلا فى الداخل واسقط على الخارج وشكله.

ومن هنا فاننا لن نكتفى حينما نتحدث عن تطور الطفل النفسى بوصف العوامل النفسية الداخلية ولكن لابد لنا أن ننظر إليها فى اطار البيئة التى يوجد فيها الطفل مما سوف يدخلنا بالضرورة إلى دراسة العوامل التاريخية والاجتماعية والحضارية والسياسية ولاقتصادية والدينية التى تؤثر على التكوين النفسى للانسان وتتأثر به. وسوف نرى كيف أن الكل تكرار للجزء الذى هو تكرار للكل بالتالى. كما أن هذا المدخل بالضرورة يفرض على المعالج النفسى أن يكون متفتحا فى دائرة وعيه ومطلعا على فروع الفكر الانسانى المختلفة فالنفس الانسانية لا يمكن أن تدرس فى عزلة عن بقية مظاهر الحياة بل انها مرآة دقيقة لكل ما هو فى الكون، فصدق القول أن «من عرف نفسه فقد عرف ربه» الا أننا نستطيع أن نذهب بهذا المبدأ - أى أن تطور الفرد يكرر تطور النوع - إلى مبدأ اكثر عمومية وهو أن الخبرة التطورية على مستوى وبأى حجم هى تكرار لما سبقها من تطور وقد يكون حجم هذه الخبرة التطورية لا يتعدى ثوانى أو دقائق وهى خبرة كثيرا ما توصف فى لحظات الالهام والرؤية الحدسية

الشاملة التى يمر بها كثير من الفنانين والعباقرة والمتصوفين والانبياء وتكاد تشبه فى حدتها خبرة الجنون («وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون») (١) هذه الخبرات ذات امتداد زمنى اطول بدرجات يمتد اطارها من حياة الفرد كلها Ontogeny إلى لحظات معدودة لعلنا نستطيع أن نشير إليها بلفظ microgeny فى حالة الخبرة المحدودة جدا زمنيا (ثوانى) و Macrogeny فى الخبرة الاطول زمنيا. وقد تحدث مازلو Maslow عن الخبرة القمية Beak experience والخبرة الهضضبية Plateau experience لوصف حالات الوعى المتسعة هذه.

وهناك تطبيق اوسع لهذا المبدأ اذا أخذنا فى الاعتبار البعد الزمنى للماضى والمستقبل وهو أن هذه الخبرات التطورية ليس فيها مجرد تكرار للماضى ولكن فيها أيضا امكانية التنبؤ بالمستقبل Ontogeny anticipates phylogeny فكلما ذكرنا أن الكائن الحى يحوى بداخله امكانية النمو والتطور. ورغم أن الصفات المميزة ليست ظاهرة ولكنها موجودة كامكانية. فلعل حدة الخبرة فى بعض الاحوال تلقى بضوئها على الماضى والمستقبل على السواء وقد يصل الافراط فى الاضاءة إلى الاحتراق وغشيان البصيرة أى إلى الجنون.

وقد نتساءل هنا عن أهمية ذكر كله فى دراسة الطفل. ان مثل هذا المفهوم يجعلنا نرى أن الطفل النامى المتطور المتحرك مرآة لما أورثناه من تراث وكلنا فى نفس الوقت نستطيع أن نتعلم منه امكانية اكتشاف مؤشرات نحو تطور المستقبل فالطفل ليس مجرد صفحة بيضاء نرسم فيها ما تشاء ولاهو مجرد أداة سالبة ورد فعل لما نفعل به

---

(١) سورة الحجر

ولكنه بما يملك من طاقة للحياة والتطور انما يتفاعل معنا بدرجة من الندية يتعلم منا ولكنه يعلمنا وينقاد لنا ولكنه ايضا يقودنا.

وكلما انكرنا تلك الحقيقة فى أنفسنا كلما حرمنا أنفسنا من امكانية التطور والنمو سواء كأفراد أو كمجتمع.

مراحل النمو بين الفطرة والمجتمع - البيضة والدجاجة :

يولد الطفل كائنا بيولوجيا، محور وجوده أن يحيا على المستوى العضوى ومشكلته الاساسية هى الحصول على الطعام والاحتماء من المخاطر الطبيعية والطفل فى الانسان يولد ناقصا هشا بالمقارنة مع غيره من الكائنات الحية وهذا يعطيه فرصة طويلة للنمو والتعليم من البيئة بدلا من أن يولد مجهزا بغرائزه فقط وهى مهما كانت معقدة الا انها محدودة فى مواجهة البيئة. وهو لهذا يعتمد فى تكوين ذاته على البيئة اكثر من الفطرة بالمقارنة مع الحيوانات الاخرى.

وعلى هذا يجب علينا عندما نصف تطور الانسان أن يكون منطلقنا شاملا للدوافع البيولوجية أسوة بالمؤثرات البيئية الاجتماعية، ومن هذا وذلك تقف الذات الانسانية باعتبارها البوتقة النهائية التى تنصب فيها القوتان المتفاعلتان.

وإن كان فرويد قد بدأ بدراسة المنطلقات البيولوجية فصور الانسان على أنه مدفوع بطاقة بيولوجية غريزية أسوة بالآلة متناسيا ارادة الذات وارادة المجتمع فان ذلك لم يكن الا مرحلة فى دراسات فرويد العميقة للنفس البشرية وهى مرحلة تشبه قصة الفيل والعميان حين ظن كل اعمى أن الفيل يشبه الجزء الذى لمسه : الا أن فرويد بشجاعة وعبقرية استطاع أن يطور النظرية ويتجاوز كل مرحلة سابقة فانتقل من خلال دراسته للأنا الأعلى إلى دراسة الآثار البيئية والاجتماعية على تكوين النفس البشرية وكذلك بانتقاله من دراسة سيكولوجية الأنا إلى مرحلة الجماع الذى يجمع الشيء وضده.

الا وهما الغرائز (الهو) والبيئة (الأنا الأعلى) ومن كلتا النقلتين تطورت مدارس

تحليلية حديثة وقعت فى نفس الخطأ الذى وقع فيه العميان والفيل فتصورت الانسان على أنه بالمفهوم السطحى للكلمة وهو هذا الجزء من النفس الذى يكون تأثره ادنى ما يكون بالعوامل الغريزية أو العوامل البيئية على السواء.

ومن خلال هذه التصارعات الفكرية نشأت المحاولات العديدة لجمع الأضداد فكان بعض المحللين النفسيين يدرسون المدارس السلوكية (مثل الكساندر Alexander فى أواخر أيامه) وبعض السلوكيين يدرسون المدارس التحليلية. كما أن كثيرا من محللى المدارس الفرويدية الجديدة يعيدون النظر فى أفكار فرويد. بينما بعض الفرويديين التقليديين يعيدون النظر فى المدارس المنشقة. ولعل أريكسون الذى سوف نشير إلى نظرياته هنا - من المحللين الفرويديين الذى اتسع افقهم لقبول كثير من المفاهيم المخالفة بحيث استطاع جمعها وسوف نركز اساسا فى هذا الفصل عن مراحل تطور الانسان على نظريات اريكسون مع الاخذ فى الاعتبار المؤثرات الفكرية المختلفة بما فيها التراث المحلى ثم دمج كل هذا واعادة افرازه من بوتقة المؤلف. بينما كان فيربيرن Fairbairn وبعده جنترب Guntrip وغيرهما فى المملكة المتحدة يتجهون فى نفس الاتجاه أى الجمع بين المؤثرات البيولوجية الداخلية والمؤثرات الاجتماعية الخارجية محتفظين بالتحالف بين التيارات المختلفة فى اطار التيار الرئيسى وذلك كبديل لترك الاختلافات تتفاقم وتتحول إلى خلافات ومدارس منشقة فالاختلاف صحى وبناء اذا قورن بالخلاف.

فالانسان اذن مسلح فى البداية بالغرائز التى يعبر عنها من خلال جسده وهو يواجه المجتمع (الذى هو فى التحليل النهائى غرائز الافراد الآخرين والتى تهذبت على مر العصور فى صورة الحضارة والعرف والتقاليد) وبين هذا وذلك يتكون وعى

الانسان بنفسه وبالتناقضات التى تحكمه وهى هنا الذات أو الانا .

ونحن نستطيع أن يدرس الغريزة من خلال اهدافها أو وسائلها فاذا اخذنا بالاهداف الاساسية للغريزة وهى البقاء فى مقابل الفناء (أو الحياة فى مقابل الموت أو الجنيس فى مقابل العدوان أو التطور فى مقابل التكيف أو الثبات فى مقابل التغيير الخ وهى كلها وان اختلفت فى المظهر تلتقى فى الاساس) فاننا نستطيع أن نصف الاشكال المختلفة التى تأخذها هذه الاهداف فى كل مرحلة من مراحل النمو. واذا اخذنا بالوسائل فسوف نرى كيف تختلف هذه الوسائل من مرحلة إلى مرحلة فى النمو والتطور وكيف أن هذه الوسائل هى بدورها تشكل الاهداف وتتشكل بها كما أنها تتوقف بالتالى على الجهاز البيولوجى الموجود فى حيزها فى مرحلة ما على حسب درجة النمو للكائن. وسوف يقودنا هذا إلى التحدث عن الادوات والمناطق الجسدية التى يتركز حولها الكائن الحى فى مرحلة ما .

أما من جانب المجتمع فسوف نواجه الكيانات الاجتماعية والحضارية (بما فى ذلك الاوضاع السياسية والتاريخية علاوة على المعتقدات الدينية والفكرية السائدة) التى تقابل المرحلة البيولوجية وتسمح بنموها، فهذه الكيانات الاجتماعية هى فى النهاية من فعل افراد كونوها من واقع خبراتهم الشخصية ولكنها فى نفس الوقت هى التى ساهمت فى تكوين الافراد عبر الاجيال وهى تتمثل داخل النفس البشرية فى مفهوم الانا الأعلى.

وبين هذا وذاك نجد الانا، وهى البوتقة التى تتفاعل فيها تلك الاضداد وهنا نستطيع أن نصف الكيانات النفسية التى تعطيها شكلها وصفاتها .

سوف ننتقل اذن الى عرض لهذه المراحل فى الاطار العام الذى وضعه اريكسون.

تداخل المراحل - الطفل عجوز والعجوز طفل :

لو تأملنا أين يبدأ عمر الانسان، أى ما هى نقطة الصفر فى حياته لوجدنا صعوبة فى تحديدها حيث أن لحظة التحام خليتى الذكر والانثى فى رحم الأم تعتبر هى نقطة تحديد ميلاد كيان جديد الا انها مع ذلك لا تعتبر نقطة بداية مطلقة من لا شىء ولكن سبقتها حصيلة خبرة آلاف القرون من تطور الحياة تلخصت فى أجنة الخليتين اللتين التحمتا لتكونا بداية الجنين.

هذا الكيان الذى يستمر فى داخل رحم الأم شبه معزول عن العالم الخارجى لمدة عشرة شهور قمرية أو أربعين أسبوعا حتى يبدأ فى تلقى أول نفس هواء له بعد لحظة ميلاده. واذا كنا نعتبر أن لحظة الميلاد هى تلك اللحظة والتى تكون بمثابة نقطة الصفر فى البداية فان ذلك فى حقيقة الامر ليس الا تحديدا جزافيا ونسبيا، فالشهور التى يقضيها الجنين داخل رحم أمه ليست فترة عزلة عن العالم الخارجى كلية بل ان المرحلة التى تسبق تكوين البويضة الملقحة من خليتى الذكر والانثى هى أيضا ليست فى معزل عن العالم الخارجى فالمشاهدات العملية والاكلينيكية بها ما يؤكد هذه الحقيقة، اذ أن هناك ما يشير الى أن صحة الام النفسية والجسمية تؤثر على تكوين الجنين بل ان المؤثرات التى تؤثر على الام (كالموسيقى مثلا) توجد عند الجنين.

ولو تأملنا رسم الدوائر المتداخلة (شكل ٣ -١) لوجدنا ان هذه الحقيقة ممثلة فى التقاء جميع الدوائر عند نقطة الصفر (فهى التى تجمع كل الدوائر، وان أى حركة نمو

متجهة من الصفر إلى أعلى تنقلنا مباشرة الى المرحلة (الدائرة) الأولى فى نفس الوقت الذى يكون هناك وجود للدوائر الاخرى جميعها على الجانبين (أى فى الاتجاه الافقى).. أى أن وجود الانسان فى هذه المرحلة لا يعنى انه فى معزل عن بقية المراحل ولكن يعنى ان وجود المراحل الاخرى ثانوى ومحدود بينما المرحلة الغالبة هى المرحلة التى يعيشها فى هذه الحقبة الزمنية. وتستمر غلبة هذه المرحلة حتى تكتمل وتتم (باكتمال الدائرة) فينتقل الانسان الى المرحلة (الدائرة) الثانية التى تكون لها الغلبة فى ذلك الحين بينما المرحلة الاولى اخذت مكانها الثانوى بان اصبحت محتواة فى داخل الدائرة الثانية والمراحل التالية مازالت تحتل اماكنها الثانوية على كلا الجانبين (أفقيا)، وهكذا مع بقية المراحل.

ان هذا التصور يجعلنا نرى كيف ان المراحل المختلفة فى عمر الانسان متداخلة ونسبية وليست فى عزلة عن بعضها البعض.

المرحلة الاولى، الامان – أطلب تأخذ، اسأل تعلم :

قد تكون لحظة الميلاد هى نقطة البداية لهذه المرحلة الا اننا نستطيع ان نعتبر انها استمرار لما قبلها، فما زال الانسان وان كان يقضى شهورا دخال رحم أمه الا أنه عند خروجه لا يكون جاهزا للوجود الذاتى المستقل عن الراشدين ويستمر نموه سنوات بعد ذلك ونستطيع ان نقول ان ما يحتاجه فى الفترة الاولى بعد خروجه من الرحم يكاد يكون استمرارا لما كان يحتاجه داخل الرحم، فهو وان كان قد بدأ فى تلقى الهواء والماء والغذاء من فمه بدلا من الحبل السرى اللا انه يعتمد اعتمادا شبه

كل يعلى أمه لتوفير تلك الاحتياجات بدون جهد يذكر منه، ولا نستطيع ان نتصور كيف يمكن ان يحيا الطفل بدون تلك الرعاية فاذا كان الطفل بحكم تكوينه البيولوجى فى هذه المرحلة غير قادر على تغذية نفسه وحمايتها فانه لذلك فى أشد الحاجة إلى ان يطمئن إلى ان هناك آخر سوف يوفر له الاحتياجات دون تأخير يذكر أى أن يطلب فيأخذ، فالصراع النفسى اذن يدور حول الاحساس بالامان والثقة الاساسية فى ان ما يحتاجه سوف يصله وانه يستطيع ان يعتمد على وجود ثابت لمن يلبى له احتياجاته، وانه يعرف ذلك معرفة اليقين والسؤال عنده لا يحتمل الشك.

ولهذا فان المجتمع يخلق الكيانات التى تلبى له هذه الاحتياجات بادئا بالام التى تكون بالنسبة للطفل ممثلا أول للبيئة الاجتماعية والمادية على السواء، فخروجه من الرحم ينقله إلى وضع متشابه ولكن احضان أمه التى توفر له الدفء والغذاء والراحة والحركة كما أنها تعدله أول مجال لتكوين علاقة بآخر يستطيع من خلالها أن يرسم حدوده.

ان وجود الأم الثابت المتكرر يعطيه الاحساس بالثقة الأساسية والأمان فالمشاعر الطيبة المطمئنة التى ترتبط بهذا الوجود ترتبط بمشاعر داخلية بأن العالم الخارجى بخير وأن هناك ثقة وأمانا. ان الامومة التى يحتاج اليها الطفل فى هذه المرحلة لا تتطلب الكثير من الام فقط الحد الأدنى من الرعاية والدفء وتوفير الاحتياجات الاساسية بواسطتها أو بواسطة من ينوب عنها. (اذ أن المعتقد أنه لا يصل بعد الى القدرة على التفرقة بين الاشخاص بعينهم حتى الشهر الثامن وما يحتاجه أساسا هو عملية الامومة اكثر منها أم بالذات الا أن هناك تجارب حديثة تشير الى أهمية خبرة الساعات الاولى فى تأكيد علاقة الثقة المتبادلة بين الام والطفل فان وجود الام بالذات

ضرورى لايجاد عنصر ثابت حتى يتمكن الطفل فيما بعد من التعرف عليها دون غيرها علاوة على أنه ينمى فى الام قوة ارتباطها هى الاخرى بالطفل. فالمطلوب ليس كثيرا ويمكن وصفه بدرجة من الامومة المعقولة أو ما يشير اليه وينيكوت Winnicott good - enough mothering الا ان الام لكى تعطى للطفل هذه الدرجة من الثقة والأمان واالاستقرار يجب ان تكون هى الأخرى قد أخذته فى طفولتها، علاوة على حصولها عليه بشكل آخر فى فترة الأمومة. اذ ان فاقد الشيء لا يعطيه وهنا يوفر لها المجتمع البنيان اللازم الذى يوفر لها هذا الاحتياج بادئا بالزوج الذى يكون بالنسبة لزوجته العلاقة الثابتة المتكررة التى يمكنها ان تعتمد على وجوده. فارتباطهما فى السراء والضراء يجعل العواصف التى تحدث بينهما مجرد اهتزازات داخل اطار ثابت ومستقر وكلما تحمل كيان الزواج البقاء رغم الاهتزازات كلما زادت الثقة ورسخ الشعور بالامان لدى الطرفين وبالتالى لدى الطفل وكثيرا ما تكون تلك الاهتزازات مجرد اختبارات لثبات الكيان الزواجى.

ولكن الزوج مثل الام يحتاج بالتالى إلى مصدر عطاء فهو عبارة عن حلقة فى سلسلة طويلة لأنه هو أيضا نتاج أسرة وأم وتربية أعطته بدرجات متفاوتة هذا الشعور الراسخ بالثقة والامان علاوة على أنه يعيش فى مجتمع قد يوفر له استمرار هذا الشعور، فهو لكى يوفر الاحتياجات الاساسية لاسرته باذئا بالاحتياجات المادية ثم الاحتياجات العاطفية والوجدانية، لابد وأن يكون هو الآخر حاصلا على تلك الاشياء فى حاضره اسوة بماضيه. وهنا يوفر له المجتمع الاستقرار فيجعل العمل ممكنا لافراده بل حقا لهم، واذا لم يتوفر العمل فهو يحصل على بديل له فى صورة تأمينات اجتماعية ومعاشات وغير ذلك من مصادر للطمانينة وعلى مستوى اخر فان التقاليد الموجودة فى

المجتمع تستطيع ان تكمل تلك النظمة فالأسرة الممتدة حيث يرعى الاقارب بعضهم وخاصة فى الظروف الصعبة مثل المرض والشيخوخة تتوفر فى الريف حيث لا توجد الانظمة المحكمة للتأمينات والمعاشات.

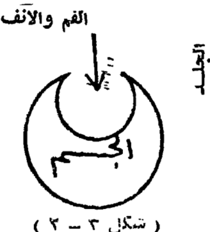
واذا انتقلنا إلى مستوى أعم فان المجتمع يوفر أيضا بواسطة قوانينه التى تعطى للفرد حدا أدنى من الطمأنينة من حيث انه لن يسمح بالاعتداء على احتياجاته الاساسية سواء بالعنف المباشر او المقنع، فالمجتمع يحد من الجريمة بواسطة القوة المنظمة والمقننة (الشرطة والقضاء) والمفروض انه فى نفس الوقت يحرص على الاتتعدى هذه القوة حدودها فتصبح هى نفسها اداة للقهر والظلم. وهذا ينطبق على القوة البوليسية والقضائية التى تحمى المجتمع من الداخل، وينطبق أيضا على قوة الجيش والدبلوماسية التى تحميه من الخارج. وطالما تحقق تلك القوة النجاح فى تأدية وظيفتها فهى قلما تتحول إلى الداخل بالاعتداء على طمأنينة أفراد مجتمعها وسلبها الشعور بالامان بل انها على العكس توفر لهم الامان من العدوان الخارجى أو التمرد الداخلى.

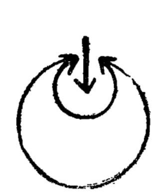
نستطيع ان نجد مظاهر هذه المرحلة فى التطور التاريخى للمجتمعات فالمجتمع القبلى البدائى لا تمييز فيه للفرد اذ ان الفرد لا يعنى ذاته كوحدة مستقلة عن القبيلة بل ان وجوده ذاته يعتمد على رضاء القبيلة مجسدا فى ارادة زعيمها لدرجة أنه اذا غضب الزعيم على فرد أمره بالموت فيطيع الفرد الامر حتى وان كان يتلقاه خارج مجال الوسائل الحسية المعروفة (فقد يكون على بعد أميال وسط الغابة) وينفذ الامر بان يجلس ويتوقف قلبه وتسمى هذه الظاهرة Voodoo death وبمقياس آخر نستطيع أن ننظر إلى مرحلة استقرار الاستعمار فى وقت ما حيث تبدو الدولة الاضعف

والمستعمرة راضية عن الدولة المسيطرة بل مقدسة لها ومطيعة لها ولأمرها.

واذا انتقلنا خطوة اخرى فسوف نجد المجتمعات قد خلقت كيانات أخرى توفر لافرادها من خلالها هذا الشعور بالثقة، فالاديان تشترك فى وجود هذا المصدر الاول الموجود الذى يرعى خلقه ويوفر لهم الرزق والحياة وهو الخالق فليس هناك دين يخلو من مفهوم يوفر للافراد هذا الاحساس. فالله فى جميع الاديان مهما اختلف تصورها له، هو الملجأ النهائى الذى يلجأ اليه الفرد فى احلك لحظاته ويستنجد به وقت حاجته وكلما كان الفرد مشبعا فى طفولته وواثقا بان هناك ثقة وأمانا كلما كان ايمانه بأن الخالق يرعاه ويستجيب له كلما استطاع توفير هذه الرعاية لابنائه فينشأون هم بالتالى ولديهم الاساس الذى يبنى عليه الايمان فيما بعد.

ان التحدى الجوهرى والصراع الاساسى فى هذه المرحلة من عمر الانسان بتلخص فى امكانية ايجاد الثقة والامان الاساسيين فى مقابل الشك، ويسمى اريكسون ذلك التحدى أو الصراع الجوهرى oral nuclear conflict - respiratory - sensory وتستمر هذه المرحلة لمدة السنة الاولى من عمر الطفل وتقابل عند فرويد المرحلة القيمةOval الا ان اريكسون يرى مثل فرويد الوظيفة الفمية ليست مقصورة على الفم وحده وان كان هو العضو الغالب، ولكنها تشمل الانف والوجه والجلد بصفة عامة ويسميها المرحلة الفمية الحسية oral - respiratovy - sensory ويرمز اليها بشكل دائرة تمثل الجسم بخط ثقيل مؤكدا اهمية الوظيفة الحسية فى الجلد مع وجود فتحة أعلى الدائرة تمثل الفم والانف.





(شكل ٣ – ٢)

كما أن هذه المرحلة تنقسم إلى قسمين، الاولى قبل ظهور الاسنان أى أول ستة أشهر وهى تتميز بأن التلقى هو أساس العلاقة مع الآخر وهو تلقى سلبى من جانب الطفل فالغذاء سائل ولا يحتاج إلى مضغ او عض. أما بعد ظهور الاسنان فآن الآلام التى تحدث نتيجة لبزوغ الاسنان تجعل الطفل يعض على الاشياء بادئا بثدى امه التى قد تستجيب بأن تسحبه منه اذا تألمت مما يزيد احساسه بعدم الثقة الا أن ادخال الأطعمة الصلبة فى هذه المرحلة يعطيه فرصة للعض ويجعل التحول من الرضاعة إلى الاكل عملية انتقال خلال هذه العلاقة الآمنة من وسيلة الى اخرى وبهذا ينقل الطفل فى هذه المرحلة من عملية التلقى السلبى إلى عملية اكثر ايجابية فهو يقبض على الاشياء بايجابيته ويأخذ عفوا ما كان يتلقاه سلبيا. وتعم هذه الصيغة mode وظائفه الجسمية المختلفة فيداه مثلا بعد ان كانتا تقبضان على ما يوضع فيهما فقط بواسطة الفعل المنعكس القابض grasp reflexأصبحت أكثر ايجابية، وعينه التى كانت تنظر فقط الى ما يأتى فى دائرة نظرها أصبحت تتتبع المواضيع بايجابية وكذلك اذنه والاصوات التى يسمعها.

ويرمز أريكسون إلى هذه المرحلة بدائرة مشابهة مضافا اليها سهمان عند الفم يمثلان عملية الايجابية فى القبض على الاشياء بواسطة الفم (شكل ٣ –٣) وهاتان

الوسيلتان تقابلان فى العمليات النفسية وظيفة الادماج incorproation الذى يتحول من العمل السلبى إلى الايجابى كما ان الوصف لوسيلة التعامل مع المجتمع التى يسميها اريكسون الوسيلة moddality ويفشل فى استخدام الكلمات العامة لها، وهى فى الجزء الاول من هذه المرحلة التلقى to get وفى الثانى الاخذ to take وهاتان المرحلتان هما المرحلتان الفميتان اللتان يشار اليهما بالمرحلة الفمية السلبية oral passive والمرحلة الفمية الايجابية او المعارضة oral receptive وهناك مظاهر لبقايا هذه المرحلة بعد انتهائها سواء كان ذلك فى صورة بقايا معيقة للتكيف اى فى صورة اضطرابات وامراض نفسية او بقايا تساعد على التكيف فى صورة سمات شخصية وخاصة تلك السمات التى تناسب وظائف موجودة فى المجتمع.

اذا بدأنا بالمظاهر السوية فسوف نجد ان هذا الذى تعلم الاخذ والتلقى واشبع بهما هو الذى يستطيع فيما بعد ان يقوم بأداء هذه الوظائف لغيره فهو الذى يستطيع العطاء دون ان يطالب ويستطع ان يترك الاشياء اذا اخذت منه دون ان يشعر انه استنفذ او استغل اذ انه مسلح بثقة فى الآخرين وكرم فى العطاء يجعله مصدرا مطمئنا للحب. وعلاقاته بالآخرين تتسم بالثقة والدفء والاقتراب المباشر الذى لا يحتاج إلى بدائل من الاطارات الخارجية مثل قوة القانون أو المال، ويجد الامان فى وجوده الاجتماعى ويؤمن بقيمته للمجتمع الذى يحيا فيه ولا يحتاج إلى أن يفرض نفسه عليه بأساليب القوة. أما علاقاته باللانهائى فهو ينظر إلى الكون ككيان متناسق متجانى ويرى نفسه منسجما معه يسبح وسطه دون خوف من عقاب أو بحث عن جزاء ولكن من واقع طمأنينة داخلية.

ان مثل هذا الشخص هو الذى يستطيع ان يتجاوز القيم السائدة ويبحث عن قيم تتعالى على الاحتياجات الفورية والدنيوية وتسمو إلى حالة من الطمأنينة والأمان قلما توجد على أرض ولكنها كانت على مر الازل مصدرا للأمل للإنسان تساعده على تحمل بؤسه فى الواقع.

أما اذا كان الفرد ينقصه الاشباع فى هذه المرحلة – ويمكننا أن نقول أن هذه هى القاعدة والاختلاف ليس إلا فى درجة الحرمان أو اذا كان الاشباع فى هذه المرحلة قد زاد عن حده وأصبح ادمانا وأغرى الطفل بالتثبيت على هذه المرحلة وعدم تجاوزها للمرحلة التالية) وهنا ايضا نستطيع أن نقول أنها قاعدة واختلاف فى درجة الاشباع) فإن السمات الشخصية التى تنتج عن كلتا الحالتين – النقص والزيادة فى الاشباع – تؤدى إلى درجات متفاوتة من الاضطراب او التوتر والذى كثيرا ما يكون ذا وظيفة تكيفية اجتماعية ولكنه يصل احيانا بسهم مائل diagonal إلى اليمين) فان الذى يتميز به هو محاولة الابقاء على درجة اعاقة التكيف وقد يصل فى الحالات الشديدة إلى درجة المرض الواضح الذى يحتاج إلى رعاية.

فاذا كان الانحراف عن النمو فى اتجاه محاولة الابقاء على الماضى (نمثله بسهم مائل diagonal فان الذى يتميز به هو محاولة الابقاء على وضع الثقة والامان كما كان فى الماضى خوفا من محاولات التعليل على المستويات الاخرى وتجنبا لها فهو يعطى ويحب كبديل لفرض سيطرته او اخذ المبادرة وغير ذلك، وليس كتجاوز لتكل المراحل ولذلك نجده يلجأ الى سلاح الحب فى موقف يحتاج موضوعيا إلى القوة او العنف ويفترض الثقة فى موقف يحتاج إلى الحرص او الشك مما يعيق تكيف ويضعه فى صراع مع البيئة. واذا زادت درجة الشك عنده فانه يتحول إلى انسان منطو على

نفسه اذ ان العالم الخارجى لا يثق فيه ولا يعتمد عليه فليجأ إلى ذاته، وهو ما نجده بدرجات متفاوتة فى الشخصيات المعتمدة وغير الناضجة والشخصية الهستيرية. ثم فى الشخصية الاكتئابية والشخصية شبه الصفامية ويصل الى أقصاه فى مظاهر الفصام العميقة حيث ينسحب المريض كلية من العالم الخارجى. ان الاضطراب فى الثقة هنا يكون احد مظاهر هذه الاضطرابات وليس بالضرورة سببا لها.

أما اذا كان الانحراف عن النمو يأخذ صورة الاستعجال فى تخطى مواجهة انجاز الحصول على الثقة والأمان أى التمسك بالمستقبل قبل الاشباع من المرحلة المعنية فاننا نجد انجازات المستقبل تأخذ صورة المبالغة التى تخفى وراءها الاحتياج إلى الثقة وتصبح هى ذاتها بديلا عن الحصول على الثقة والأمان فالفرد هنا يستخدم السلطة أو المبالغة فى تأكيد الذات أو المبادرة أو غير ذلك من النجازات التالية للمرحلة الأولى كمجرد بديل للثقة والزمان. وبدلا من أن يطلب الحب والقبول مباشرة، فهو يلجأ إلى القوة مثلا للحصول على ذلك، بينما ينكر حاجته إلى الحب وهو يبدو قاسيا أو عنيفا ولكنه فى الحقيقة يمارس رد فعل لاحتياجه العميق للثقة والطمأنينة. واذا زاد الاضطراب فانه يتسم بالصفات الشكاكة البارانوية فهو يعتقد ان العالم لا يثق به ولكنه لا ينسحب او يرضخ بل يأخذ ما يريد عنوة، الا انه بطبيعة الحال لا يستجيب العالم لمثل هذه الرغبات بالطريقة التى يتمناها ولذا تزيد حالته سوءا فيتحول إلى الانطواء على نفسه فى عداء سلبى للعالم الخارجى ونجد مظاهر هذه المرحلة اذن فى حالات الفصام البارنوى وان كان لا يمثل بالضرورة الاضطراب الرئيسى أو الجوهرى أو المسبب لهذه الحالة.

المرحلة الثانية الاستقلال – أنا ارفض فأنا موجود :

اذا مامرت المرحلة الأولى بسلام واطمأن الطفل ان العالم بخير وانه لن يخذل او يترك او يهجر فانه يستطيع ان ينتقل إلى المرحلة التالية فى نموه فبعد ان ترك الرحم وانفصل عن امه فانه استمرارا لهذا الانفصال يتدرج فى التخلى عن اعتماديته شبه الكاملة على أمه خاصة وان نموه الجسدى فى نهاية هذه السنة الأولى يسمح له بان يغذى نفسه دون ثدى امه او يدها كما انه يستطيع ان يقف على رجليه ويتحكم فى عضلاته بما فيها العضلات العاصرة غير المخططة والتى تتحكم فى فتحات الجسد (الشرج والمثانة) كما انه يستطيع ان يمارس التكلم. كل هذا يعطيه محورا للانجاز فى مجال الاستقلال عن جسد امه رغم انه مازال يحتاج اليها لمساندته عند اللزوم فقط اى يحتاجها خلفه كقوة احتياطية يطمئن اليها فهو يتقدم إلى الأمام ولكنه يعى ان وراءه من ينظر اليه فاذا نجح فى إنجاز ما يسعى إليه استمر زاهيا بشعوره بالاستقلال، وليس خلفه من يشده إلى الخلف وان كان ينظره بل انه يتركه ويشجعه على التقدم، واذا فشل فانه يشعر بالخجل والشك فى ان خلفه من يترقبه ليحاسبه أو يؤنبه على فشله، انه يعى ذاته ككيان منفصل يريد ان يستقل عن كيان امه ولكنه ينجذب إلى الاعتماد عليها كما كان يحدث فى الماضى، كما ان وعيه بجسده وقدرته على التحكم فى عضلاته يجعله ثنائى المشاعر بين التمسك بالاشياء والتشبث بها وبين تركها وقذفها وهو فى ثنائيته هذه يطلب من امه ان تتركه ينمو ويستقل وفى نفس الوقت يطلب منها ان تتحمله اذا ما فشل. فهو يريد ان يقف على قدميه ولكنه يطلب المساندة اذا وقع، ويريد التكلم ولكن يطلب ان تفهمه امه اذا لم يستطع التعبير، ويريد التحكم فى فتحات جسمه ولكنه يريد ان يستمر فى الاستمتاع بعملية الاخراج دون توبيخ او اهانة.

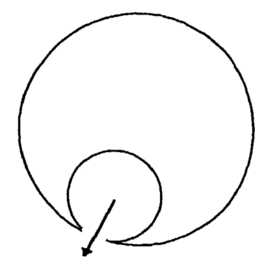
ووعيه بذاته ككيان مستقل يبدأ فى هذه المرحلة على خلاف المرحلة السابقة حيث لا يفرق الطفل بين ذاته والموضوع. الا انه لكى يؤكد ذاته لابد له ان ينفى ما هو ليس ذاته ومن هنا تتميز هذه المرحلة بصراع الارادة بين الطفل وامه ويكون محور الصراع هو تأكيد الارادة بعد ان كان قبل ذلك يدور حول مجرد الوجود، اى ان الطفل الذى وجد الاجابة على سؤاله : هل اكون او لا اكون؟ (فى أمان وغياب المخاطر على وجودى) اصبح لاان يسأل : هل اريد او لا اريد ؟ وهل استطيع تأكيد ارادتى وذاتى فى مقابل الاخر ؟ (دون ان افقد قاعدة الامان التى حصلت عليها) فاذا اكد ذاته فانه قد حقق انجاز هذه المرحلة وهو الاستقلال واذا فشل فانه يشعر بالخجل والشك فى نفسه ويسمى اريكسون هذا الصراع الاستقلال فى مقابل الخجل والشك.

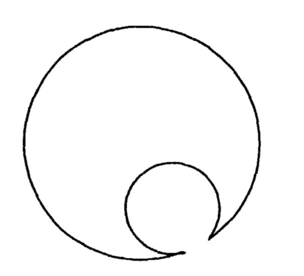
Autonomy versus shame and doubt

وبالعودة إلى الاسس البيولوجية لهذه المرحلة فسوف نجد ان هناك انتقالا من منطقة الفم إلى الخارج (أى فتحات الشرج والمثانة) وهى تقابل التطور البيولوجى للكائنات الحية التى تمر من مرحلة التلقى والاخراج من فتحة واحدة إلى تخصيص فتحة للتلقى(الفم البدائى) stoma «وفتحة للاخراج (المبرز او ال Cloaca) كما انها وظيفيا تمثل مرحلة الانتقال من الاخذ والاحتواء المتبادل مع الترك اوالاندماج إلى مرحلة التحكم فى المنع والعطاء (بواسطة العضلات غير المشرطة) واذا كانت هذه النقلة هى احدى مظاهر النمو فى هذه المرحلة بالاضافة إلى التحكم فى العضلات بصفة عامة وخاصة العضلات المتصلة بالوقوف والمشى والكلام فان التركيز الحضارى على النظافة والنظام قد جعلا معركة الاستقلال تدور حول فتحة الشرج بالاخص مما جعل فرويد يسمى هذه المرحلة بالمرحلة الشرجية anal واذا كانت

المعركة تتسم بالعنف والعدوان وغير ذلك من مظاهر تأكيد الذات.

والتحكم فيها فان صفة السادية تكاد تكون لازمة لهذه المرحلة التى عرف احيانا بالمرحلة السادية الشرجية anal - sadistic والوسيلة التى تتميز بها هذه المرحلة تتصل بوظيفة التحكم العضلى، فالعضلات تمسك او تتقلص وترتخى، وأوضح مظاهرها فى عملية التحكم فى مخارج الجسم فيما يختص بالتبول والتبرز، فالطفل اصبح فى مقدوره ان يمنع اخراجاته أو يتركها او يقذف بها خارج جسده. ويسمى اريكسون هاتين الوسيلتين : التخلص elimination والاستقباء retention ويرمز اليهما برسم الجسم كدائرة وبه فتحة فى اسفله تمثل المخارج وعليها خط يمثل الاستبقاء او سهم خارج منها يمثل الاخراج، وترسم الدائرتان فى نفس المستوى لابراز ان هاتين الوسيلتين المتضادتين توجدان فى نفس المرحلة ولكن بالتبادل وهو اذ يكتسب هذه القدرات من واقع نموه البيولوجى الذى يؤهله لهذا التحكم فى عضلاته فهو يتعلم على مستوى علاقاته بالاخرين وسيلة التعامل المقابلة وهى القدرة على الترك letting go والقدرة على التشبث holding on





وهنا يأتى دور المجتمع فى تسهيل هذا الانجاز بالنسبة للطفل بادئا بالام وسوف نجد ان الم التى حصلت على درجة من الاستقلال فى طفولتها تستطيع ان تسمح للطفل ان يمارس استقلاله دون خوف من تركه لها فهى تستطيع ان تتركه فى نفس الوقت الذى تتشبث به وتجد المقابل لذلك فى علاقاتها الحاضرة بزوجها الذى تتشبث به بدلا من طفلها مع الاختلاف فى حالة الزوج لانه أقدر من الطفل على الاستقلال عنها دون خوف من فقدانه، فاذا كانت علاقتها بزوجها تتسم بالاعتمادية الشديدة فانها بدافع من الخوف من ترك زوجها لها سوف تتجه إلى طفلها وتتمسك بتعلقه بها واعتماديته عليها وبالتالى سوف تعيق استقلاله. واذا اوسعنا الدائرة قليلا فسوف نجد ان الزوج الذى يتمتع بدرجة من الاستقلال والاحترام لكيانه فى المجال الاجتماعى الأوسع سوف يكون أقدر على السماح لزوجته بدرجة من الاستقلال والعكس صحيح فى حالة عمل المرأة وممارستها لعلاقتها مع المجتمع مباشرة دون أن يكون الزوج هو الحلقة الوحيدة أو الرئيسية بينها وبين المجتمع وقياسا على ذلك فان علاقة الطفل بالبيئة الاجتماعية التى توجد نوافذ وحلقات اتصال اخرى غير الام، كلاهما ينمى القدرة على الاستقلال.

والمجتمع الأعم يوفر للأسرة وأفرادها هذا الشعور بالإستقلال فعلى مستوى الأسرة ما زالت المجتمعات تعتبرها الوحدة الأجتماعية الصغرى التى تكون المجتمع وتمنحها درجة من الإستقلال والحكم الذاتى رغم وجود الإتجاه نحو إحلال المجتمع الأوسع محل الأسرة فى كثير من وظائفها (قد تصل إلى درجة محو الأسرة كما يحدث فى الكوميونات)، وكذلك يكفل المجتمع درجات من الإستقلال للأفراد تتراوح بين النظام العسكرى والكلاسيكى كحد أدنى من الإستقلال للأفراد داخل المجتمع

(العسكرى) وبين نظام اللجان والجمعيات والمجالس وبينهما نجد النظم والروتين والبيروقراطية بدرجات متفاوتة وكلما كان المجتمع يسمح بدرجة من الحرية لأفراده كلما سمح الأفراد بالتالى لذلك الأستقلال لأفراد أسرهم.

وإذا كان مجتمع الثقة والأمان يعطى التأمينات التى تعطى الطمأنينة على مستوى تلبية الأحتياجات العضوية الأساسية للأفراد فإن مجتمع الأستقلال يرسم الحدود ويحدد النظم التى تسمح لكل فرد أن يعرف حدوده تجنبا للإحتكاك والصراع. فهو المجتمع الذى يسن القوانين والنظم والبيروقراطية ويمارس التعليمات ويمنع ويمنح. وكذلك تجد فى بعض مظاهر الأديان تعبيرا عن هذه المرحلة فكل الأديان لها طقوسها وتعاليمها التى تصل إلى حد الإنفصال عن المشاعر الحقيقية أو الإيمان. ووظيفتها أن تخلق نوعا من النظام الخارجى الذى يجمع أفراد الدين الواحد بغض النظر عن عمق إيمانهم، فالناس يذهبون إلى الجوامع والكنائس بالإنتماء المتبادل دون المساس بالإستقلال الذاتى أو التعرض لنوعية إيمانهم فما دام كل فرد يمارس الشعائر الخارجية فليس لفرد آخر حق التدخل فى جوهر إيمانه. كما أن التعاليم بصفة عامة تخلق نوعا من الطمأنينة وخاصة أن هناك أفعال لن يسمح بها بغض النظر عن النيات فقد يطمع أحد فى أموال آخر ولكن ما دام لا يعتدى عليه فلا حساب لاحد على نوايا الطامع والحكم فقط على أعماله. هذه التعليمات الدينية تضع حدا أدنى للسلوك فليس لأحد الحق فى محاسبة صاحبه بعد ذلك على أساس النيات فهذا هو الجانب الإجتماعى من الدين يحاسب على الأعمال بغض النظر عن النيات.

أما فى تاريخ المجتمعات فإننا نجد هذه المرحلة تتمثل فى تمرد أفراد القبيلة على القبيلة الأم وإنشقاقها عليها وإنشاء قبائل جديدة وعلى مستوى الدول نجد ان الدول

المستعمرة وهى تمارس كفاحها من أجل الإستقلال لمجرد إثبات إرادتها تتعارك مع الدول المستعمرة وتنفى وجودها رغم حقيقة الرباط بينهما (الأمر الذى تشاهد مظاهره فى إستمرار العلاقات بين البلدين والتى قد تمثل بعض بقايا التبعية الإقتصادية والحضارية) بعد إنتهاء معركة الإستقلال.

أما بقايا هذه المرحلة بعد إنتهائها فهى أيضا تتوقف على درجة الإشباع أو الحرمان التى مرت بها مما يجعلها تأخذ صورا قد تساعد على التكيف والصحة أو صورا قد تعيق التكيف أو تصل إلى درجة المرض.

وإننا نجد سمات الشخصية المتبقية من هذه المرحلة التى تعبر عن الصحة فى إحساس الفرد بإستقلاله وقدرته على الرفض والنفى والمخالفة وهو أن وافق أو تكيف فإنما يفعل ذلك عن قدرة وإرادة وليس عن خوف من إثبات ذاته.كما أنه بالمقابل أن رفض أو خالف أو نفى فإنما يفعل ذلك عن إقتناع ورغبة متكاملة وليس لمجرد العناد لإثباتذاته.

وإذا لم يكن الإكتفاء فى هذه المرحلة صحيا (سواء كان ذلك بالإشباع الزائد أو الحرمان الزائد) فأن الجذب النقوصى الذى ينتج عن ذلك يؤدى إلى سمات مرضية فى الشخصية قد تخدم التكيف فى حدود (حسب درجة نضج المجتمع) أو تعيقه. فتجد صفات العناد الواضح حيث. الفرد يقول «لا» بدافع من الخوف من الخضوع ومبالغه منه فى الرغبة فى الإستقلال التى تخفى وراءها إحساسا بالتعلق والإعتمادية، بأخذ الشكل المرضى إلا أنه فى إطار ظروف زمان ومكان ما قد تخدم التكيف، فأحيانا يكون العناد خطوة نحو إثبات الذات والإستقلال إلا أن المبالغة هنا هى التى تجعل

السمات مرضية. فالعناد فى حد ذاته لا يخدم التكيف بل يؤدى إلى الألم نتيجة تصادم الإرادات.

وفى حالات المرض الصريح نجد بقايا هذه المرحلة فى حاللات البارانويا والوسواس القهرى وبعض حالات الإكتئاب. فالأول يؤكد ذاته بأن يبقى على الصفات المقبولة فيه بينما يعتقد أن العالم الخارجى هو الشر (أنا خير وأنت شر) ويتصارع مع الأخرين من هذا المنطلق بينما الثانى يعكس (أنا شر وأنت خير) وفى كلتا الحالتين فإن العنصر البارز من بقايا هذه المرحلة هو هذه التفرقة الحادة بين الداخل والخارج (أنا والآخر) مع أضافة صفات قيمية على الجانبين وما هو إلا مظهر من مظاهر تأكيد استقلال الذات داخل الفرد نفسه فهو اما خير او شر، واما ابيض أو أسود، وهو الإبقاء على الذات «جيدة» (البارانويا) أو الإبقاء على الآخر جيدا (الإكتئاب)

أما فى حالات الوسواس القهرى فإننا نجد هذا الإصرار على تأكيد حدود الذات داخل الفرد نفسه فهو إما خيرا أو شرا، وإما أبيض أوأسود، وهو يتأرجح فى ثنائيته بين هذا وذاك ولذا نجد الصراع بين الجانبين على مستوى الشعور، كما أننا نجده ممثلا فى الخارج وفى الداخل فالوسواس قاس مع نفسه ومع غيره كما أننا نجده أيضا رقيقا مع نفسه ومع غيره.

المرحلة الثالثة، المبادرة – الحياة كنز فاملأ جعبتك :

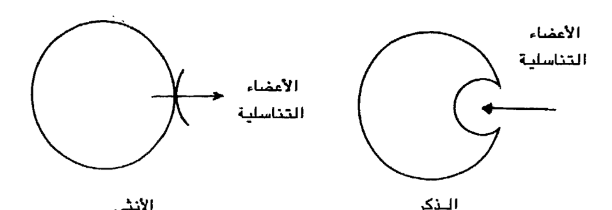
واذا استطاع الطفل تأكيد ذاته ووقف على رجليه واستقل عن ارتباطه الكفلى بأمه فانه ينتقل بعد ذلك إلى التحدى التالى وهو يدور حول ما الذى سوف يفعله بهذا

الاستقلال ؟ نستطيع ان ننظر إلى هذه المرحلة أيضا على أنها استمرار لعملية الانفصال عن الام فمن ناحية نموه الفسيولوجى فهو قد أنجز القدرة على التحكم فى عضلاتِه ويستطيع أن يهتم بما سوف يفعله بهذا التحكم. فبعد الوقوف والمشى ينتقل إلى مشكلة ماذا سيفعله بالوقوف والمشى وليس فقط الإكتفاء بالوقوف أو المشى، فهو يسير إلى أماكن أخرى ونحو أهداف وفى مسافات متباعدة عن جسد أمه ولذا فهو يستخدم قدرته الجديدة لكى يصل إلى أماكن ويكتشف العالم الخارجى ومن ناحية الكلام لم تعد المشكلة محصورة فى : هل ينطق الكلام أم لا ينطلق ولكن ماذا سيقول بكلامه ؟ ومن ناحية التحكم فى مخارج جسده أى عمليات التبول والتبرز فهو لم يعد يخشى فقدان أجزاء من داخله أى البول والبراز ولكنه أصبح يهتم بتماسك أجزاء جسده وبنيانه ويستمتع به سليما متكاملا وليس بأجزاء يحتفظ بها داخله ثم يلقيها خارجه (مثل البراز) كما أننا نجده بعد أن أكد أنفصاله عن أمه يستطيع أن يعقد المقارنة بين جسده وجسد أمه فهو اما متشابهة (فى حالة الأنثى) وبالتالى مختلف عن الأب (الدى يدخل فى حياة الطفل ككيان اخر منفصل عن الام) أو مختلف عن الأب (فى حالة الذكر) ومتشابهة مع سبيه وهنا يعى الطفل الفروق بين الجنسين بعد أن كان شغله أن يعى الفرق بين جسده وجسد أمه أى بين الذات والموضوع كثنائى أساسى يسبق ثنائيه الذكورة والأنوثة ولعل لهذا الأهتمام بالفروق بين الجنسين فى مجتمع يخشى الإنسياق وراء اللذة الجنسية على حساب التماسك الإحتماعى والعمل يجعل الأسرة تخشى هذا الوعى الجديد للطفل وما قد يترتب عليه إذا ماتركه يستكشف جميع أبعاده. ولهذا يعى الطفل أهمية أعضائه التناسلية وبما أن الممنوع مرغوب وتصبح هذه المنطقة من جسده ذات أهمية غالية. وحيث أن الفرق الظاهر بين الجنسين

فى هذه المرحلة هو القضيب فأن فرويد أطلق عليها المرحلة القضيبية phallic ومن جانب آخر فإن المجتمع رغم خوفه من التعبير الجنسى يضفى قيمة إيجابية على الذكورة وما يصاحبها من صفات الإقتحام والإختراق والسيطرة والعدوانية فأن القضيب (الذى يملك بحكم تكوينه العضوى هذه الصفات) يصبح موقع حسد من جانب الطفلة الأنثى التى تتغلب عليها تلك وهى حسد القضيب penis envy كما أن الذكر يقدر فخره بعضوه يخاف عليه من الفقدان فتتغلب عليه مقابل ذلك ظاهرة قلق الخصاء castration anxiety

الا أن الإتجاهات الفكرية الأنثوية Feminism ترفض هذا التحيز لاعطاء القيمة الاعلى للذكورة وترى فيها رد فعل من جانب الذكور (الذين يسيطرون على مصادر الفكر والسلطة والمال) وإنكارا لما يكمن بداخلهم من حسد عميق لقدرة المراة على الإنجاب والإستمرار العضوى من خلال ذريتها وكذلك قدرتها على العطاء الملموس (الرضاعة) والرعاية الجسمية لطفلها ومن هنا نشأت مفاهيم مقابلة لحسد القضيب وهى حسد الرحم womb envy وحسد الثدى breast envy وهو أعمق وأقدم من مرحلة الوعى بالأعضاء الجنسية ولذا فهو يوجد فى الطفل فى سن مبكرة وان كان يأخذ مكانا أبرز لدى الذكور فيما بعد.

ويرمز أريكسون إلى غلبة المنطقة التناسلية فى تلك المرحلة برسم سهم مقطوع بجزء من دائرة ومتجه إلى الخارج من الجنب فى حالة الذكر أو سهم متجه إلى فتحة جانبية فى الداخل فى حالة الأنثى وهكذا.



اما الوسيلة الغالبة لهذه المرحلة فهى الأختراق intrusion فى حالة الذكر والذى يقابلها فى حالة الأنثى الإحتواء inclusion وإذا الأختراق كانت الوسيلة بشقيها (الإقتحام) تصف عملية الأعضاء التناسلية.

القضيب يخترق ويقتحم ويدخل بينما المهبل (الرحم) يستقبل ويحتوى ويتلقى، الا أن هذه الصفات تنطبق على بقية أعضاء الجسم.

فالطفل يتحرك نحو الأشياء ويسعى إليها ويميل إلى تفتيتها كما أنه فى حديثة يفرض كلامه على محيطة وهذا يجعله دائما يأخذ المبادرة ويبدو ذكيا خلاقا مكتشفا كثير الإستطلاع مليئا بالحيوية والنشاط والبهجة الأمر الذى يجعله كثيرا ما ينسى الفشل ويستمر فى المحاولة وهو فى مبادرته هذه لايمارس إرادته لمجرد تأكيد وجودها ولكنه يمارسها لكى يستمتع بها ويستمتع بإيجابية تفاعله مع البيئة وسيطرته عليها.

ولعل الوسيلة الإجتماعية هنا يصفهــا اريكسون بكلمة make اى الفعل بمعنى on the make اى فى حالة ممارسة مستمرة للفعل وهو يجد الفرق بين الذكر والأنثى فى هذه المرحلة فى أن الذكر يستمر بالهجوم والغزو بينما الأنثى تفضل

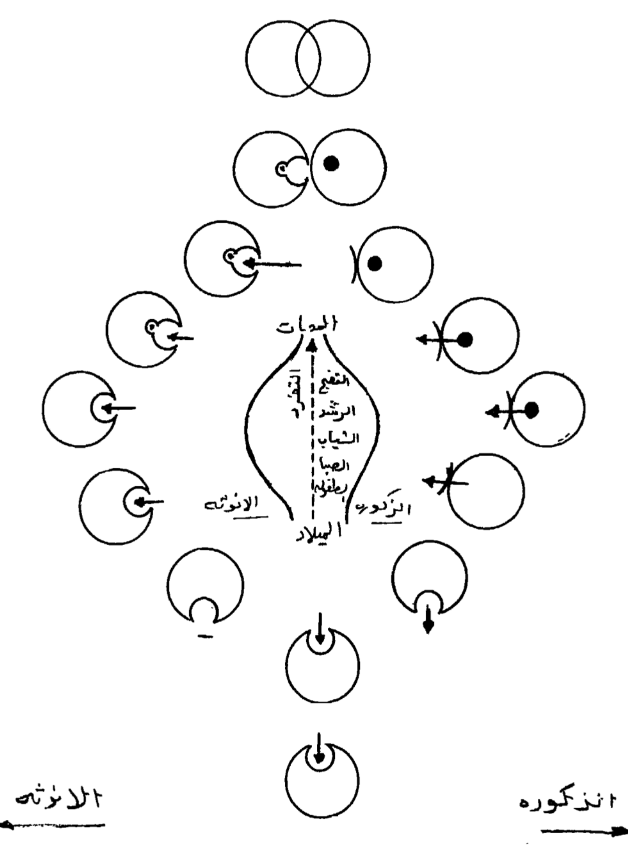
القبض متراوحة من الدرجات العدوانية التى تتمثل فى الخطف و«النتش» إلى الدرجات الأقل عدوانية التى تتمثل فى الإعتماد على التوقيع فى الشباك بواسطة الدلال والجاذبية.

واذا كان التجاح فى المبادرة يملأ الطفل بالزهو والثقة بالنفس فأن البالغة فى العدوانية التى تنم عن فشل فى هذا الإنجاز تخلق فى الطفل شعورا بالذنب. والفرق بين عدوانية الطفل فى المرحلة الثانية (مرحلة الإستقلال) والثالثة (مرحلة المبادرة) هو أنه فى مرحلة الإستقلال يسعى للإحتفاظ بمركزه الأول بأن يمنع من هو أصغر منه من أخذ محله. فهو لتوه خارج من المرحلة الأولى حيث لم يسع وجود طرف ثالث فى حياته ووجد نفسه فى المركز الأول بالنسبة لأمه وهوعند خروجه من هذه المرحلة يخاف من أن يحل محله طرف ثالث أى طفل أخر أصغر منه. أما عدوان المرحلة الثالثة فهو اكثر طموحا نظرا لما يكتشفه الطفل فى نفسه من قدرات مبادرة وهو يسعى نحو احتلال مركز من هو أفضل منه وقد يكون شقيقا اكبر، بل كثيرا ما يكون الاب (وهو استمرار طبيعى بالنسبة للطفل الذكر) أو الأم (فى حالة الطفلة الانثى وتحتاج إلى نقله بعد المرحلة الثانية بأن تفترق عن أمها ثم تنافسها وتتعلق بأبيها) ان هذه المنافسة هى فى الواقع منافسة طموح ونظرا للفرق الشاسع بين الواقع (صغر حجم الطفل وعدم نضوج اعضائه الجنسية وامكانياته المحدودة من حيث الخبرة والذكاء والقوة) فان الطفل يعوض هذا الفشل فى الواقع بمبالغة انتصاراته فى الخيال والخيال لا حدود له فقد يصل فى عدوانه تجاه أبيه إلى تخيلات الاعتداء والقتل مما يثير فيه الشعور بالذنب أو الاثم guilt. كما أنه يسقط هذا العدوان على أبيه بأن يتخيل أن أباه سوف ينتقم منه ويحرمه من هذه الميزة التى تجعله منافسا له وهى وجود القضيب وهنا نتذكر مرة

أخرى عقدة الخصاء.

ان هذه الدراما الرهيبة تبقى فى ذاكرة الانسان عصورا فبقدر ما هى مملوءة بالحيوية والبهجة بقدر ما بها من شعور بالذنب يجعل نسيانها أمرا ملحا، انها تفرض نفسها فيما بعد فى مراحل مختلفة فى صورة صراعات مشابهة وقد تتحول إلى أعمال فنية مثل مسرحية «أوديب ملكا» عند فرويد وهى أيضا تعرف بالمرحلة القضيبية وان كان الوصف السابق يشير إلى الطفل الذكر الا ان نفس الشىء ينطبق بالنسبة للطفلة الانثى (واحيانا توصف باسم آخر مصدره اسطورة اليكتر Electra.

ويرسم أريكسون هذا التطور المتباين بين الذكر والأنثى فى صورة مفترق فى الطريق بعد المرحلة الثانية ويستمر الطفل الذكر فى خط مائل (قطرى) مستقيم فى اتجاه امتداد لوسيلة الاقتحام لتطوير المنطقة وهى منطقة الاعضاء التناسلية التى تصبح مستعدة للجنس الناضج القادر على الانجاب والرسم عند اريكسون يصور هذا الاستمرار على أنه قدم إلى الأمام بينما يصور تطور الانثى على انه عودة إلى الخلف نحو وسيلة شبه فمية وهى الاحتواء وان التقدم فى المنطقة ممثلا فى الاتجاه إلى اعلى فى الرسم وكذلك فى كون الاعضاء التناسلية تنضج وتصبح قادرة على الانجاب. ولهذا فان التعديل الذى ندخله على هذا التصور يمكن فى ان يكون الاتجاه للامام أو التقدم فى صورة خطا رأسى إلى أعلى بينما تتمثل الذكورة فى خط يميل جانبا (لليمين) والانوثة فى خط يميل إلى الجانب الآخر (لليسار) وبالتالى فليس هناك أفضلية للذكورة على الأنوثة ولكنهما يمثلان الحالتين مكملتين ومختلفتين. وهو اختلاف مرحلى خلال فترة الانجاب ثم يعود الخطا المائل يمينا أو يسارا نحو الوسط أى يزداد الذكر أنوثة وتزداد الانثى ذكورة (شكل ٣ - ٦) وشكل (٣ - ٧).



تطور الفروق بين الجنسين

ولعل هذا التعديل فى الرسم يعبر عن تطور قيم المجتمع السائدة وخاصة المجتمع الغربى الصناعى الرأسمالى المتسلط (أو الاشتراكى الذى يشترك فى صفة التسلط) حيث هناك أفضلية لما هو مرتبط بالذكورة masculine فى مقابل الانوثة feminine وهو ليس بالضرورة مرتبطا بالجنس كمفهوم عضوى gender (بل هو مفهوم حيادى القيمة) نشير اليه «بالانثوية» femaleness مقابل «الذكرية» maleness الامر الذى يجعله من الممكن أن يكون الشخص مذكرا عضويا ولكنه مؤنث معنويا (وهو معنى أوسع من مجرد كونه مخنثا) وكذلك تستطيع المرأة أن تكون انثى عضويا ولكنها ذكر معنويا (بمعنى أوسع من مجرد الاسترجال). وعلى هذا فاننا نرى أن الشكل كما رسمه اريكسون يعبر عن أفضلية قيمة مرتبطة بحضارة بعينها فهو بالرسم يعتبر أن التطور بمعنى الذكورة مطابق للتطور بمعنى «الذكرية» ومرادف للتطور للامام كما أنه يعتبر التطور بمعنى الانوثة مطابقا للتطور بمعنى «الانثوية» ومرادفا للنكوص (على الاقل فيما يتعلق بالوسيلة) . واذا اخذنا بمفهوم يونج عن التفرد individuation والذى يمثل سعى كل انسان فى تطوره وتكامله فاننا نجد أن ما يميزه هو هذا الجماع بين الاضداد (الخير والشر، الشعور واللاشعور، الانبساطة والانطوائية. الانوثة والذكورة) وبالاشارة الى هذا المفهوم نستطيع أن نقول أن الانسان فى سعيه نحو التكامل يتخطى مرحلة الجنس ويتجاوزها مع ما يصاحبها من فروق جنسية وهو لهذا اذا كان ذكرا مثلا نجده يميل نحو المزيد من الانوثة ونشاهد ذلك فى نضوج الرجال حين يرتبط بالاقلال من السعى وراء الجنس والعدوان فنجده اكثر حكمة ورقة وطيبة ودماثة بل نشاهد المظاهر البيولوجية لهذا الاتجاه فى انخفاض الهرمونات وضمور العضلات وشعر الوجه وفى التغيير فى الصوت. ونجد الظاهرة معكوسة فى

المرأة حيث نجدها بمرور السن تزداد ذكورة.

ومن ثم نستطيع أن نستخلص من هذه الظواهر أن الذكورة والأنوثة تمثلان كلتيهما انحرافات مؤقتة ضرورية مرحليا تخدم توزيع الادوار بين الرجل والمرأة فى خدمة الانجاب فى بقاء الاسرة حتى تكتمل فيعود الطرفان للقاء فى الوسط مرة أخرى (شكل ٣-٧) .

لعلنا أطلنا فى وصف هذه المرحلة وخاصة الاشارة الى الاسس البيولوجية لها ولكن هذا يرجع إلى أهمية هذه المرحلة من عدة نواح فهى تمثل قمة الحركة والحيوية فى الطفولة كما أنها تحتوى على أسس التمييز الجنسى بين الذكر والانثى والمفاهيم المرتبطة بذلك. ولعل الكثير من العقد النفسية فى الفرد المتوسط مرجعها إلى مدى فشل أو نجاح تخطى هذه المرحلة.

واذا انتقلنا الآن إلى تكوين الجهاز النفسى فى هذه المرحلة فاننا نجد الغرائز الجنسية قد عادت لها الغلبة (بعد ما كان العدوان فى المقدمة فى المرحلة السابقة لها والذى وصل إلى درجة السادية). ويرتبط ذلك كما اشرنا بتحول الاهتمام نحو الاستمتاع بالجسد والحفاظ عليه مكتملا بعد ما كان الخوف من فقدان جزئية منه (البول والبراز) يأخذ الغلبة. (وان كان الخوف من اصابة جزئية يستمر فى هذه المرحلة فى صورة الخوف من الخصاء مع ازدياد الجنس أو المتعة و الذى يرتبط بالمنافسة مع الأب (فى حالة الذكر) والام (فى حالة الانثى) فى نفس الوقت الذى يمثل الابوان فيه نموذجا التوحيد الذى يرسم للطفل تصورا لذاته عندما يكبر فهما بالتالى يمثلان ضرورة لنموه ومصدرا لحبه. علاوة على أنه بنموه الحركي واستطاعته

ترك أمه لمسافات وفترات زمنية تزداد طولا، فإن جهازه النفسى يتطور بحيث يأخذ معه بداخله ممثلا رمزيا لهذا الموضوع الذى تركه على بعد ولمدة طويلة وجهازه العصبى قد تطور ليمكنه من قدر من الذاكرة يجعله فى غنى عن الوجود المادى للموضوع (الأب أو الأم) وهذا الجهاز النفسى هو الانا الاعلى superego والذى ظهرت بوادره فى المراحل السابقة الا أن تبلوره لا يحدث الا فى تلك المرحلة. وهو الجهاز الذى بواسطته يشعر الطفل بالذنب بعد ما كان قاصرا فيما قبل بالشعور بالخجل.

ومع احتداد الصراع بين الغرائز والأنا وما يصاحبه من خوف من العقاب (أو خوف من العدوان الذى يسعى إلى التخلص من المنافس وهو الأب والأم) يتطور جهاز الانا لكى يخلص الطفل من آلام هذا الصراع ولتتحول طاقته نحو المزيد من الاستطلاع والاستكشاف ونحو مزيد من اكتمال هذا التطور ووصله إلى ذروة تصل إلى المرحلة التالية وهى مرحلة المثابرة industry، ولكن قبل أن ننتقل اليها لا بد أن نشير إلى بعض الجوانب الاجتماعية والمرضية لهذه المرحلة.

فاذا بدأنا بالاسرة فاننا سوف نجد أن الاسرة التى لا تختلط فيها الادوار أو تدور حولها الصراعات بين الذكورة والانوثة تسهل على الطفل التعرف على دوره الجنسى كما أنها بواسطة تماسكها وارتباطها تؤكد للطفل أن المتعة الجنسية لا بد لها من ضوابط وتحكمات وليست خاضعة لنزوات اللحظة ولكنها مرتبطة بوجود علاقة مستمرة وملتزمة ومسئولة، واذا كان هذا الالتزام من جانب الابوين داخليا وخاليا من الكبت والمخاوف فانهما بالتالى لن يبالغا فى الخوف من النزعات الجنسية لدى الطفل ولن يسرعا بكبتها كما انهما بحكم اشباعهما المتبادل لن يحولا رغباتهما الجنسية (مقنعة أو

مكشوفة) تجاه الطفل الامر الذى يعيقه عن النمو والاستقلال واختيار رفيقه الملائم.

وفى هذه الاسرة ايضا نجد أن حل الصراع الجنسى يسمح للابوين بالمبادرة فى مجالات اخرى للحياة على مستوى المجتمع الاوسع فيستطيعان تحويل طاقتيهما إلى الخلق والابداع، الامر الذى يسهل لهما تكوين علاقات ندية مع الطفل الذى يشاركهما الابداع بل يوحى به اليهما. أو نجد أن الطاقة تتحول نحو المزيد من البحث عن مجالات جديدة للعمل أو الاستثمار أو السعى وراء المال. وهنا نجد العلاقة المتبادلة بين الاسرة (كممثلة للمجتمع) والطفولة، فالاسرة التى نشأت فى حضارة تؤكد اهمية تأجيل الغرائز الجنسية هى التى تتماسك وتحد من شهواتها وتحول طاقاتها نحو العمل وتنشئ أبناءها على نفس القيم. كما تتعلم من الطفل عملية التأجيل هذه فالطفل فى هذه الاسرة حينما يترك العنان لغرائزه يهدد تماسكها فيملى عليها أن تجعله يكف عن هذا التعبير غيرالمحكوم.

فإذا انتقلنا إلى المجتمع الأوسع نجد المبادرة يأخذ صورة السعى وراء التوسع والإكتشاف والإستثمار. فالقيم تتمركز حول العمل المربح أكثر من العمل المجد المتواصل والمغامرة والحظ أكثر من المثابرة والإجتهاد والإغراء المستمر بقرب النجاة دون الوصول إليه، فتأجيل الشهوات ممكن فقط فى إطار الوعد بها على مستوى التخيل فالثراء أصبح ممكنا ومحتملا ويستطيع أى فرد أن يكون ثريا. ولكن على المستوى الموضوعى فإن عدد الأثرياء محدود ولهذا فالأمل دائما أكبر من الواقع. ويستطيع أى فرد أن يحصل على الجنس، فالبهرجة على أشدها والملابس ملونة وفاقعة ولكن من حيث الواقع فأن الجنس بالتالى يتطلب درجة من الثراء. والثراء ممكن على مستوى التخيل، وعلى مستوى المجتمع وعلى مستوى المجتمع نجد هذا الصراع بين

الغرائز والأنا الأعلى يأخذ صورة الصراع بين من ليس لديهم ويتمنون وبين من لديهم ويصبحون مصدرا للإغراء. فإذا زاد الأغراء وزاد التمنى فى عدم وجود الإمكانيات المحدودة زاد الإحباط ووصل الصراع إلى ذروته. ولذا نجد المجتمع مثله مثل الفرد يحتاج إلى تنمية للذات أى القدرات الراشدة العاقلة التى تستطيع الحد من الصراع بين النقيضين تجنبا بأن تحتوى طرفيه.

ان مجتمع المبادرة المتطرفة يميز المجتمع الراسمالى الإستعمارى الأستغلالى بينما تطوره ينبغى ان يقابل نمو الذات وقدرتها على الحد من حدة الصراع وبالتالى تجنب الإنفجار نحو المزيد من التنازلات بين الأطراف المتناقضة كما يحدث فى حالة مجتمعات أوروبا الشمالية.

اما عن اثار بقايا هذه المرحلة على تكوين الشخصية فى الصحة والمرض فإننا نجد الشخصية السوية تمارس المبادرة ودون خوف من العدوان وتجازف بالخلق والإبداع بشجاعة وتبعد عما هو تقليدى وروتينى اما فى حالة الإضطراب فإن هذا الإبداع لايكاد يأخذ الا صور الإنحرافات المختلفة عن التقاليد دون معنى أو هدف أو المبادرة فى العمل والسعى المستمر وراء المزيد من الإستثمار والإكتشاف دون هدف. فنجد الرجل يسعى نحو المزيد من المال دون إن يعرف ماذا يفعل به أو يسعى نحو المزيد من الإقتحام والإختراق والإنتصار، والمرأة أو المال بالنسبة له ليستا الا وسيلة لاستعراض عضلاته (أو قضيبه) ولا يهتم بالطرق الاخرى الا كمجرد وسيلة فهو انسان فى النهاية وفى اعماقه وحيد وخائف.

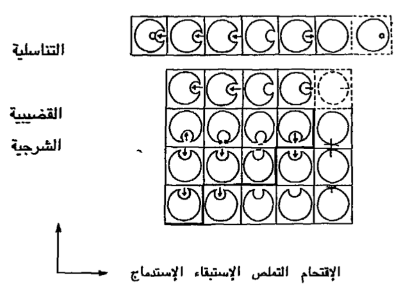
فاذا اقترب احساسه بوحدته وبضعفه زادت الظواهر المرضية فالذى حصل على

المال يواجه فراغه ويتساءل عن معنى وجوده ويمر بحالات الإكتئاب المرتبط بالشعور بالاثم فهو يمتلك كثيرا بينما الناس جيع وعراة، ان مايمكه أصبح مصدرا للخوف (من فقدانه) ومصدرا للمرض (قد يصاب بارتفاع الضغط او القرحة فى المعدة او غير ذلك) والذى يسعى إلى مزيد من الجنس نجده ايضا يفقد طعمه او يصاب بالبرود او الضعف الجنسي.

واذا كان الشعور بالضعف اقرب إلى السطح فاننا نجد مظاهر المرض متمثلة فى جانب بمظاهر الخوف من المبادرة مثل الاحساس بالضعف الجنسى والخوف والاكتئاب كما نجده فى صورة البرود او الضعف الجنسى ونجد فى مقابل ذلك ردود الفعل المعاكسة كأن نجد المبالغة فى العمل أو المبالغة فى الجنس.

ولعل الظاهرة المرضية الواضحة المرتبطة باضطرابات هذه المرحلة هى امراض الهستيريا وما يرتبط بها من كبت وانكار واضح للرغبات الجنسية التى تكون جد قريبة من السطح ونجد هذا الارتباط بين الاغراء المستمر دون الاشباع يميز حالات الهستيريا ففى هذه الحالة نجد ان الذى يتباهى بالجنس ويغرى به ولكنه عند نقطة الفعل نجده باردا او ضعيفا من الداخل ومن هنا تكثر حالات الإرتخاء والضعف والبرود الجنسي. ان هذه الصفة تلون الشخصية بسمات تجعلها كثيرة الاستعراض وحب الكلام والتباهى مما يجعلها سطحية بل كاذبة.. وكذا نجد الانفعالات متغلبة وسريعة التحول مرة اخرى على حساب العمق. ونجد الاعراض كثيرا ما تعبر عن هذه الرغبة والخوف منها فالاعراض التحولية كثيرا ما تكون تعبيرا عن الرغبة و عقابا لها فى نفس الوقت. ولعل ارتباط مظاهر الهستيريا بالجسد (الهستيريا التحولية) مرجعه إلى هذه المرحلة التى تتميز بهذا الإهتمام بالحفاظ على الجسد متكاملا ومحاولة

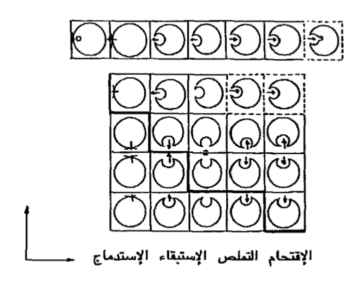
الاستمتاع به دون الخوف من فقدانه كليا (وان كان الخوف من فقدان جزء منه واضحا) ولعلنا اذا ترجمنا هذا إلى سؤال وجودى يقابل سؤال المرحلة الأولى (هل أكون) والمرحلة الثانية (هل أكون آخر) امكننا صياغته فى سؤال : «هل أكون آخر مكتملا». فصفة الاكتمال هذه تتأسس على مستوى الجسد بأن يشعر الفرد بالثقة والطمأنينة نحو جسده وتكامله وعدم فقدان جزء منه أو اصابته وهو يشعر أن جسده مرغوب فيه. ونظرا للتمايز بين الجنسين الذى يميز هذه المرحلة فإن الاحساس بتكامل جسده يرتبط بالجاذبية الجنسية والقدرة الجنسية. ولما يميز هذه المرحلة من قدرة على تكوين علاقة مع اخر مختلف فان هذه الرغبة فى موضوع اخر ترتبط بأن يكون الموضوع مختلف الجنس. وأن يكون تفضيله من قبل هذا الآخر من الجنس المخالف ايضا عنصر التفضيل فهو يفضل عن غيره من الذكور فى حالة الذكر (يفضل عن الاب أو عن الاشقاء) ولذلك فان الغيرة فى هذه المرحلة تحل محل الحسد.



شكل ٢- التصور النفسى الجنسى عند اريكسون

فى الذكر – التطور فى المراحل = تطور فى المناطق الجسمية (الفم ثم الشرج ثم الاعضاء التناسلية) وتطور فى الوسائل فى اتجاه قطرى.

فى الانثى - التطور فى المراحل = تطور فى المناطق الجسمية فتطور ثم نكوص (الاحتواء) فى الوسائل فى شكل خط قطرى ينعكس بزاوية حادة.

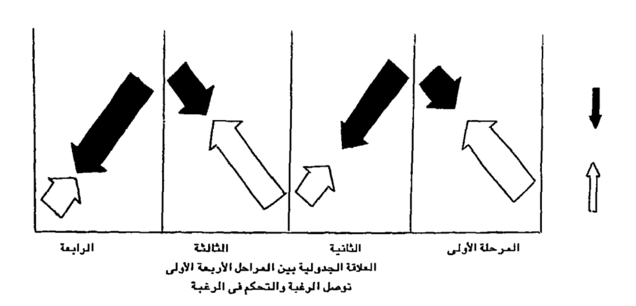


المرحلة الرابعة، المثابرة - من الجنة الى ارض الكفاح الدؤوب :

فى المرحلة الاولى كان السؤال : «أكون او لا أكون» مصحوبا بارتباط عضوى بمنطقة جسديا بعينها، وفى المرحلة الثانية كان السؤال : «أكون مستقلا» هو الآخر مرتبط بمنطقة جسدية وهى العضلات بصفة عامة والعضلات غير المخططة (العاصرة) بصفة خاصة والتى كانت أكثرها حساسية تلك التى تحيط بالمنطقة الشرجية، وفى المرحلة الثالثة كان السؤال : «اكون منفصلا وسليما» مرتبط هو ايضا بمنطقة فى الجسد تمثل العنصر الرئيسى المميز لهذه المرحلة فيما يختص بالتمييز الجنسى وما يصاحبه من مبادرة وذلك العضو هو القضيب وأما فى المرحلة الرابعة فاننا لا نجد مثل هذا الارتباط الواضح بمنطقة جسدية بعينها.

فالغرائز فى تلك المراحل الثلاث كانت واضحة وبارزة وخاصة فى المرحلة الاولى (الطعام أو النوم بدون نظام) بينما نجد الموجة تنقلب الى حد ما فى المرحلة الثانية

(التحكم فى العضلات والغرائز) ثم تعود مرة أخرى إلى الازدهار فى المرحلة الثالثة (المبادرة والبحث عن المتعة الفورية) كما لو كان التطور هنا يمر بتموجات جدلية من أطروحة تقابلها اطروحة مضادة ثم جماع للاطروحة يصبح هو بدوره أطروحة جديدة تقابلها اطروحة مضادة وهكذا. الا اننا نستطيع أن نرى فى تلك المراحل الثلاث الاولى ما يجمع بينها من ميل إلى غلبة الغرائز فى مقابل التحكم فيها (الانا الاعلى) ونجد بالتوازى ايضا بروز المناطق الجسدية المحددة (الفم ثم الشرج ثم القضيب) فى مقابل الجسد ككل.



العلاقة الجدولية بين المراحل الأربعة الأولى
توصل الرغبة والتحكم فى الرغبة

ولذا فإن المرحلة التالية وهى المرحلة الرابعة عند أريكسون والتى يسميها مرحلة المثابرة وهى تقابل مرحلة الكمون عند فرويد والتى تبدأ فى حوالى سن السادسة حتى المراهقة وتتميزفعلا بأنها أشبه بالأطروحة المضادة بالنسبة للمراحل التى سبقتها.

فالطفل ازاء ازدهار رغباته وغرائزه وما يصاحبها من تخيلات وردود فعلها من التخيلات المقابلة فى صورة العقاب والاثم والمبالغة فى التحكم فى الغرائز يجد أنه لا مفر من أن يتحول فى الإتجاه الآخر. والمجتمع يسهل له ذلك بأن يسدل الستار على

تلك الحقبة من تاريخه التى تتميز بالبهجة والمتعة ويطالبه بالانتقال إلى عملية ترجمة تخيلاته إلى واقع بواسطة المثابرة والعمل الدؤوب مع القدرة على تأجيل لذاته.

فالطفل الذى يريد أن يحصل على أمه يكتشف أنه لا يملك الامكانيات الجسمية أو النفسية أو المادية التى تسمح له بذلك فلا مفر من أن تفضل الأم زوجها كرفيق وند، وازاء هذا الاحباط فان الطفل بواسطة صلحه مع أبيه يؤجل معركته معه إلى حين يكتسب خبراته ويصبح ندا له فهو بواسطة التوحد معه وجعله مثله الأعلى يتجنب انتقامه بل يكسب حبه فيتعلم منه حتى يصير مثله، ويختار هو أيضا رفيقة له كما فعل أبوه وأمه. فبواسطة هذا التأجيل يبتعد الطفل عن جسده وغرائزه ولهذا يسمى فرويد هذه المرحلة مرحلة الكمون ولعل هذا يفسر عدم بروز منطقة جسدية غالبة بعينها فى هذا الوقت بل نجد الطاقة الغريزية (الليبيدية) موزعة على الجسد كله وتتحول عن الهدف الشبقى إلى الاستمتاع بالانجاز الذى يتوج مثابرته فى العمل.

ان الطفل صاحب هذا المطلب يجد المجتمع مستعدا لتحقيق مطلبه هذا فهو يوفر الوسائل التعليمية المختلفة فى صورة المدارس حيث يتعلم أسسا لمهارات عديدة، والأسرة فى هذه المرحلة تقل أهميتها اذ انها استطاعت بواسطة النظم الاجتماعية ان تنقل هذا العبء فى التربية إلى المجتمع الأوسع فى صورة المدارس، الا انه تاريخيا كان هذا (ومازال فى كثير من المجتمعات) هو دور الأسرة.

فان الفلاح يذهب معه ابنه إلى الحقل ويتعلم منه الزراعة وتفعل الابنة نفس الشيء مع امها فى حالة الحرف المنزلية المختلفة، وهنا تنتقل علاقته بالأشياء التى يتعلمها من مجرد اشباع لحب استطلاعه ومجرد اللعب بالأشياء والاستمتاع بها إلى تقييم فوائدها الموضوعية فى عالم الانتاج والعمل فهو يستعد لأن يكون صاحب حرفة يستطيع بواسطتها أن يحصل على مصدر للرزق والعمل الذى يؤهله لأن يكون مثل أبيه (والبنت مثل أمها) مسئولا عن زوجة (أو زوج) ثم أسرة. فالجنس لم يعد مجرد متعة تشبع

بدون ثمن أو مسئولية ولكن لابد له لكى يستمتع به أن يحصل على ما يستطيع أن يقدمه كمقابل وهى هنا القدرة على العمل والانتاج والمساهمة فى البنيان الاجتماعي.

ان تصوره لذاته لم يعد محدودا بجسده وانما امتدت تلك الحدود لتشمل الادوات التى يتحكم فيها والمهارات التى يستطيع أن يكتسبها. أنها بحق بداية الانسان التكنولوجى الذى يتعامل مع الادوات فى اطار برنامج أوسع يكون هو فيه جزءا من كل فهو فى المدرسة واحد بين تلاميذ عدة أسوة بما سوف يحدث فى المصنع أو الجيش، وهو ينتمى بواسطة المدرسة إلى كيان له وظيفة وعمل وليس كيانا كالأسرة يرتبط أساسا بالدفء والحب والراحة والاشباع. فهو بواسطة هذا التفضيل للعمل على الاستمتاع والحرمان على الاشباع والتعب على الراحة يستعد لدوره فى المجتمع الاكبر حين يطلب منه أن يعطى للجيل القادم من الاطفال ما تلقاه هو فى طفولته أو أكثر.

فاذا نجح الطفل فى هذه المرحلة فانه يشعر بالرضا عن نفسه وبالقوة الناتجة عن قدرته على التحكم والحصول على المهارات أما اذا فشل فانه يشعر بالنقص الذى قد يدفعه إلى أن يحن إلى ماضى الاستمتاع الأسرى فى المراحل السابقة وما صاحبه من منافسة وغيره، والغيرة والعقاب اللذان قد يعوقا الانجاز فى هذه المرحلة قد يكونا خارجيين فى صورة قصور المدرسة أو غياب القدوة من جانب الأبوين اذا كانت حياتهما ينقصها العمل والاعتزاز أو قد يكونا داخليين اذا كانت الذات قاصرة فى قدرتها على استخدام الادوات أو اذا كانت الاشباعات الغريزية من المراحل السابقة مازالت تلح فى العودة اما لكونها لم تكتمل او للافراط فيها مما يجعل التخلى عنها صعبا.

ومن جانب آخر فان الطفل بدافع الانكار لتلك الرغبات الملحة أو بدافع من انكار مواز فى والديه قد يبالغ فى الإهتمام بعمله على حساب وجدانه كما لو كان العمل هو التكفير الوحيد عن هذا الذنب الذى اقترفه حينما كان فى جنة الطفولة وأكل الثمرة

المحرمة فعوقب عليها بالطرد من الجنة وحكم عليه بالأشغال الشاقة.

ان التوقف عند هذا المفهوم هو الذى يؤدى فيما بعد إلى الانسان الآلى الذى يعمل دون كلل مثل سيزيف يكرر نفسه دون متعة أو ابداع أو معنى. انه لم يعد يستطيع أن يجد لنفسه قيمة إلا من خلال عمله فاذا توقف عن عمله لسبب او لآخر بل حتى لو انه أخذ فترة راحة ولو قصيرة فانه يشعر بالنقص والذنب.

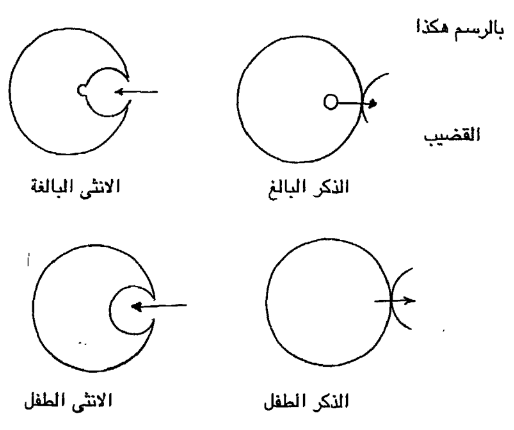
وعلى مستوى الأسرة فاننا نجد أن الأسرة التى تحيا فى ظل ظروف اجتماعية تحتم عليها العمل الدؤوب على حساب اللذة فهى فى مكانة اجتماعية تفرض عليهاالعمل من أجل البقاء مع وجود أمل فى تخطى مرحلة البقاء الاساسى والانتقالى فى السلم الاجتماعى إلى أعلى وبالتالى الحصول على الجزاء فى صورة امكانية الاستمتاع (الذى يتوفر بالحصول على المال والسلطة) انها أسرة الطبقة المتوسطة التى لا ترضى بالعدم وتطمح باستمرار فى الصعود. ولكن ثمة الصعود هو العمل الدؤوب المضنى فالقيم عند هذه الأسر يغلب عليها تغليب التحكم فى الغرائز وتأجيلها على قيم الاستمتاع واللذة والجمال وهى بالتالى تتميز بالمحافظة و النظام والدقة وتميل للوسط السياسى.

أما المجتمع الذى ينمى فى هذه المرحلة فى الانسان فهو المجتمع التكنولوجى الذى يضع الافضلية للعاملين المنتجين فيه أكثر منها لمالكى القوة المالية أو العسكرية فى حد ذاتها والتى تتحول هى بالتالى إلى خادمة لهذه القيم ولحامليها من التكتيكيين العاملين. ولعلنا نجد هذا التغليب فى تاريخ المجتمعات حينما تطول مرحلة المبادرة والاثراء السريع السهل والمغامرة فى التسلط والانحلال والمبالغة فى الاستمتاع، فان مثل هذا التطور يتلوه رد فعل فى اتجاه تغليب العمل على اللذة ولعل المجتمعات الرأسمالية تمر بهذه النقلة بطريقة تدريجية بينما نجد هذا التحول أكثر حدة فى حالة الاتحاد السوفيتى وأكثر أيضا فى حالة الصين.

المرحلة الخامسة، الهوية – ثورة البعث :

لعله تأكيد للجدلية فى التطور ان يتلو الكمون الشديد فى مرحلة المثابرة زوبعة المرحلة الخامسة، ولعلها أعنف ما يواجه الانسان فى مراحل تطوره، فالجسد يعود مرة أخرى ليقحم نفسه على الوجود من خلال نموه المفاجىء فى الحجم والشكل علاوة على التغييرات الكيمائية (الهورمونية) مما يصيب الشاب بهزة فى كيانه تجعله يكاد يفقد التعرف على نفسه فيسأل بالحاح وبعمق (من أنا ؟) وهنا تبرز مشكلة الهوية التى تكون جوهر صراع هذه المرحلة فى حياة الانسان.

ان عودة الجسد هذه وان كانت تشمل الجسد كله الا أن محورها يرتكز حول الاعضاء التناسلية التى تصبح جاهزة للانجاب. وهنا يشار إلى هذه المرحلة بالتناسلية بدلا من «القضيبيه» التى كانت تميز المرحلة الثالثة (المبادرة). ويميزها أريكسون بالرسم هكذا



ففى هذه المرحلة تعود ذكريات الصراع الأوديبى والرغبات المحرفة تجاه الأب أو الأم وخاصة فى وجود الأسرة الأساسية حيث يستمر الشاب المراهق فى علاقة مادية وعاطفية مع أسرته وخاصة فى المجتمعات المزدحمة والمحدودة الموارد ومع صحوة هذه الرغبات مع وجود استمرار التحريم للاشباع فان الصراع بين رغبات الشاب وامكانيات الاشباع يصير عنيفا بالغ العنف واذا أضفنا إلى هذا البعد الزمنى الذى جعل من مرحلة الشباب هذه المرحلة مطولة بالمقارنة مع الحقائق البيولوجية فان عنف الصراع بالاضافة إلى طوله يجعلا هذه المرحلة فعلا من أخطر مراحل تطور الانسان ففيها امكانيات الخلق والابداع وفيها مقابل ذلك امكانيات القتل والتشويه.

ان الشباب من الناحية البيولوجية يكتمل نموه فى فترة قصيرة ويستطيع ان ينجب ويعمل أسوة بأبيه. الا أن التقدم الحضارى التكنولوجى أطال فى فترة الاستعداد فى مرحلة الدراسة وأضاف مرحلة للتخصص فى اختيار المهنة وهى مرحلة التعليم العالى التى قد تستمر من عامين إلى خمسة عشر أو عشرين عاما. والشاب لهذا يؤجل ممارسة حياته الجنسية كاملة (بمعنى الزواج والانجاب) وهو لهذا يضع على حياته «موراتوريوم» «moratorium» أى تعليق أو وقف لنشاطه حتى يتم استعداده للممارسة. وهو توقف بين مرحلتى الطفولة والرشد ولعله يمثل نقطة تحول جذرية فى حياة الانسان من مرحلة كان تكون فيها فى تعارض بين تلقائية فى متطلبات المجتمع إلى مرحلة يأخذ هو الجانب الايجابى ويساهم فيها مع المجتمع فى تكون الجيل القادم. ومن مرحلة كان فيها يعيش داخله فى تعارض مع خارجه إلى مرحلة يصبح فيها هو جزءا من الخارج أى المجتمع (الذى يتعارض مع داخل الآخرين) ومن مرحلة كان هو المفعول به إلى مرحلة يصبح فيها هو الفاعل.

ان الازمة التى يعيشها الشاب هى أزمة الهوية « Identity Crisis» هى تلك الازمة التى يؤدى فيها التساؤل : «من أنا» إلى اهتزاز فى كل مفاهيمه السابقة عن تصوره لذاته. فبواسطة هذه الهزة يعيد الشباب تشكيل ذاته من جذورها منذ بداية حياته فيعود يحيا جميع مراحل حياته السابقة التى دفنت أو تأجلت عند الانتقال فى كل مرحلة إلى التى تتلوها، ان النجاح فى هذه المرحلة يؤدى إلى اكتشاف الشاب لهويته واذا فشل فى ذلك فانه يضيع فى حالة من ارتباك الدور أى محور صراعه هو الهوية فى مقابل ارتباك الدور. Identity v/s role confusion

واذا استطعنا ان نلخص المشكلات الاجتماعية التى يعيشها الشاب هنا فهى تدور حول اختيار المهنة واختيار الرفيقة أو الرفيق الجنسى وهى مرحلة ما قبل الممارسة للمهنة أو الزواج. ومن خلال مجابهة الشاب لهاتين المشكلتين فهو يكتشف اجابة السؤال : «من أنا ؟» وهو لهذا ينظر إلى الفتاة التى يختارها وليس لشخصها ولكن إلى المدى الذى يستطيع أن يحدد بواسطتها هويته. وكذلك نظرته إلى اختياره لعمله.

فلننظر إلى الخلف قليلا لنرى كيف أن المراحل السابقة تؤثر على عملية الاختيار هذه. فاذا عدنا إلى المرحلة الأولى حيث مشكلة الأمان فان الشاب اذا لم يشبع من هذه المرحلة نجده يبحث فى فتاته عن البديل للأم التى تستطيع أن تعطيه هذه القاعدة الأساسية التى لا تتزعزع ولا ترفض له طلبا. فهو يطلب منها أن تدور فى فلكه وتعيش لارضائه وتقويته حين يضعف ويحتم عليها أن تفهمه دون أن يتكلم فتجيب مطالبه دون حاجة إلى أن يبوح بها اذا لم تفعل انكمش فى ذاته وسعى إلى العودة إلى الرحم مرة أخرى واذا لم ينجح فى تحويلها إلى رحم فانه يلجأ إلى الارض فيسعى إلى الموت ليدفن نفسه فى بطنها وتراوده الرغبة فى الموت أو الانتحار، أو قد نجده منذ البداية

رافضا لأية علاقة خائفا من وضع ثقته فى أى شخص آخرا ما دامت خبرته الأساسية انه ليس هناك أمان.

واذا عدنا للمرحلة الثانية حيث المشكلة هى تأكيد ذاته المنفصلة فاننا نجد مظاهر هذا الصراع فى الشاب المراهق الذى يحاول السيطرة على رفيقته أو يقبل سيطرتها عليه لكى يعيش من جديد. تلك المعركة من أجل الاستقلال من هذه السيطرة. أو نجده متعلقا بها لا يتعرف بحقها فى التواجد المستقل.. وتكثر معارك تأكيد الارادة بالعناد ونوبات الغضب العنيف التى قد تصل إلى حد التعارك الجسمانى، وقد يرى فى كل رفض من جانبها لطلباته التحدى لارادته، أو قد يرى فى كل طلب من جانبها محاولة لاخضاعه. واذا ما اختار المسافة المناسبة لابعاده عن مجال المعارك فان علاقته قد تتصف بالهدوء النسبى ولكن بعيدا عن أى اقتراب أو دفء حقيقى بل انه يمارس قسوته من خلال أدبه الزائد. وهنا تتصف الرفيقة بأنها لا تعدو أن تكون مجرد موضوع ملكية يحتفظ بها ويسيطر عليها.

واذا ما عدنا إلى المرحلة الثالثة نجد الشاب قد ينظر إلى رفيقته بمقدار ما تشبع قدرته على الانتصار. فكلما كانت صعبة المنال كلما سعى اليها. وحين يحصل عليها فانه يستغنى عنها فقد أدت الغرض المطلوب وهو اثبات أنه منتصر وقادر على اقتحامها أو توقيع الشاب فى شباكها ونجده يختار من يستطيع أن يزهو بها ويجعلها كالزينة التى يعلقها فى ممتلكاته وهو لا يريد أن يحتفظ بها ولكن يريد مجرد الحصول عليها. وينتقل من فتاة إلى أخرى دون أن يستقر أو يشبع من أى منهن. فهو فى داخله يشعر بعجزه وخصائه ولا يستطيع المجازفة بالدخول فى علاقة دائمة.

واذا ما عدنا إلى المرحلة الرابعة حيث العمل الدائب فقد نجد الشاب يكبت أية رغبة جنسية ويصر على الاستمرار فى مرحلة الصبا والكمون من عمل جلود. ومن جانب آخر يرفض تلك المرحلة السابقة برمتها فنجده بعد أن كان مجدا فى عمله حى الضمير دقيقا منظما فى حياته متشبثا بالقيم والخلق يثور على كل هذا ويتحول إلى النقيض تماما فى صورة اللعب واللهو والمغامرة.

وهو فى محاولاته لتأكيد ذاته والانفصال عن أسرته قد يسعى إلى رد الفعل بأن يختار الرفيق أو المهنة التى تخالف صورة أبويه وهذا يفسر لنا العلاقات التى تحدث بين الفئات المختلفة فى الدين والجنسية والطبقة الاجتماعية. الا أن هذه الخلافية ليست الا الوجه الآخر للعملة بالنسبة للطاعة والتى تأخذ صورة الاختيارات المتشابهة كان يتوارث الابناء أعمال ومهن آبائهم ويتزاوجون فى الدائرة العائلية المحدودة أو يتزوجون من يشبهون آباءهم بشكل أو آخر على حساب تلقائيتهم.

والأمثلة التى نستطيع أن نسوقها كثيرة وتأخذ جميع الصورة الممكنة وفى تقلب سريع لدرجة أن الصورة الاكلينيكية التى تأخذها أزمة الهوية حينما تصل إلى حدة تستدعى النصح أو العلاج، هذه الصورة كثيرا ما تشبه مرض الفصام الابتدائى الذى تظهر فيه مختلف الاعراض الذهانية والعصابية فى تداخل محير. ففى هذه الازمة حيث يعيد الشاب بناء نفسه بأن يعود إلى المراحل السابقة التى لم يكتمل نموه فيها ويصفى ما تبقى فيها من حسابات. ويبدوا عليه مظاهر الامراض المختلفة ولكنها فى الحقيقة أقرب إلى عملية الصهر الذى من خلاله يمكن أن يعاد بناء شخصيته وهى عملية ثورية لا يخرج منها الشاب كما كان أبدا أو كما يقول لانج (١) عن الأزمة

R.D. Laing "The Politics of Expeuience and The Bird of Paradise"
Penguin / London, 1960

الذهانية الحادة : «لقد رأيت عصفور الجنة.. ولن تعود الأشياء كما كانت أبدا.. أبدا..».

ان المبالغة فى الحدة فى هذه الأزمة ينتج عنها أن يخرج منها الشاب ثائرا يتحول إلى مجرد متمرد سرعان ما تنطفئ ثورته، خاصة اذا ما نجح فى استفزاز قهر الأسرة والمجتمع له فينهزم فيقتل هذا الغليان ويجمده ويصير بهذا مجرد آلة خاضعة متكيف مع المجتمع، وقد ينجح فى تأجيل ثورته إلى أن يأتى الوقت المناسب والامكانيات المناسبة فى مرحلة تالية من عمره فيترجم ثورته إلى عمل ثورى.

فاذا نظرنا إلى المقابل الاجتماعى لهذه الأزمة فاننا نجد الأسرة وهى تعيش مع الشاب أزمته، وهذه الأزمة بالنسبة للأسرة هى بمثابة يوم الحساب فان كل ما اقترفته فى حق هذا الشاب فى طفولته يعود اليها من خلال ثورته عليها فيصيبها بالتالى بأزمة فى هويتها. وقد تنجح الأسرة فى عزل الشاب الثائر تحت لافتة المرض النفسى فتضفى عليه صفة الانحراف عن السواء الذى يتمثل فيها وتستعين بالطبيب النفسى ليؤكد هذه الصفة ويعاونها فى إعادته إلى حظيرة الطاعة لقيمها فتطفىء رؤيته لحقيقتها وترفض طلبه للحساب. ولكن قد تستفيد الأسرة من الثورة عليها فتعيد هى الأخرى تشكيل نفسها وبنيانها وتتطور مع الشاب الثائر بالحوار معه بدلا من اخضاعه. وإذا كانت الأسرة راسخة الاحساس بهويتها واثقة من نفسها فان الثورة عليها لن تصيبها بل ستثريها بالتفاعل معها، أما اذا كانت ذات هوية مهزوزة فهى سوف تنجرف فى تيار الثورة المتمردة هى الأخرى وتتزلزل من أعماقها أو تفعل العكس فتتمسك بموقفا رجعيا متحجرا.

ونستطيع أن نرى هذه الأزمة فى هوية الأسرة فى الأسرة التى تنتقل من مكانة اجتماعية إلى أخرى أو من حضارة أو بيئة إلى أخرى. فالاسرة المهاجرة من الريف

المحافظ إلى المدينة المتغيرة سوف تجد نفسها ازاء هذا الاهتزاز فى القيم اما متشبثة بالماضى محتفظة بتقاليدها الريفية بدرجة تعيق تكيفها مع البيئة التى تعيش فيها بل تعزلها عنها أو قد تبالغ فى تقليد الجديد مما قد يؤدى إلى انهيار فى القيم.. وأحيانا نجد كلا الحلين فى جيلى الأسرة فالاباء يتمسكون بالقديم تمسكا زائدا بينما الابناء يبالغون فى سعيهم وراء الجديد، وكم من أب متدين محافظ وجد أبناءه متجهين إلى التحلل من قيمه وان كان العكس يحدث أحيانا أن يعود الأبناء إلى التمسك الزائد بالقيم كمظهر لثورتهم على آبائهم.

ونجد فى المقابل الاجتماعى على المستوى الاوسع ثورات الشباب. فالشباب فى ثورته على الآباء يرفض الاب المباشر وكذا الأسرة البيولوجية وكنه بانتمائه إلى مذهب أو ايديولوجية أو حزب أو جماعة وما لدى كل هذه الجماعات من أبطال وزعماء حقيقيين واسطوريين انما يعيش انتماءه لابويه وأسرته من الباب الخلفي. فالشاب الذى يثور على واقعه الاجتماعى والسياسى انما يرفض فى الحقيقة واقعه الاسرى (وهذا لايعنى اطلاقا أن الواقع السياسى والاجتماعى مثالى ولا يستدعى الثورة عليه. فان مثل هذا الواقع المثالى لا وجود له طالما أن الانسان والمجتمع يتطوران ويعيان ويسعيان إلى الأفضل ولكنه يعنى أن هناك موازنة فى مظاهر الثورة فى المجتمع والأسرة. وان الدوافع تختلط وتتداخل، وأسوة بالثورة على الاسرة نجد الشاب فى ثورته على المجتمع قد يرفض ما هو قائم بحثا عما هو أفضل كما يتصوره مستقبلا - وهى تقابل ثورات اليسار - أو برفض ما قائم بحثا عما هو أفضل كما يتصور أنه كان موجودا فى الماضى فيعود إلى أمجاد الاجداد والماضى والتاريخ - وهى ثورات اليمين - الا أن أكثرية الشباب قد يمارس ثورته بالسالب بأن يتظاهر بالخضوع للواقع والتكيف معه

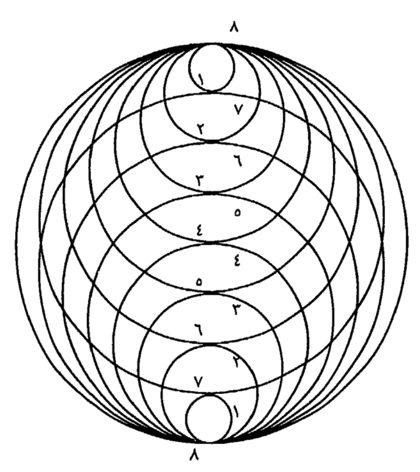
بينما هو يغلى بداخله، وقد يستمر الغليان فيتحول بعد انتقاله إلى مرحلة أخرى من عمره إلى عمل ثورى أو قد لا يتحمل الم الغليان فيطفئه بعملية انتحار حسى فيقتل أحاسيسه ويتبلد ويتحول إلى انسان فاقد الهوية وضعه فى المجتمع وضع الترس فى الآلة.

واذا انتقلنا إلى أزمة الهوية على مستوى المجتمع الاوسع نستطيع أن نرى كيف أن الأمم فى بحثها عن هويتها تمر بأزمات متشابهة، فمصر مثلا بعد انتقالها من مرحلة الاعتماد الكامل على الغرب والخضوع له والتوائم معه والموافقة عليه فى أمان واستقرار نسبيين تثور على الغرب وتنفصل عنه بخلافية تؤكد فيها ارادتها المستقلة وتتصارع معه لدرجة الاحتدام بالعنف (ثورات ١٩١٩، ١٩٥٢، ١٩٥٦ وغيرها) ثم تبحث عن هويتها بين انتمائها الافريق والعربى والاسلامى متحدة تارة ومنفصلة تارة اخرى مع غيرها وهى فى كل ازمة تعاود احياء الازمات السابقة فتعيد الحريات والانفتاح ثم تسحبها اذا ما فلت العيار وزادت القلقلة. وفى كل أزمة تظهر التيارات الثورية المختلفة سواء كانت فى اتجاه اليسار أى السعى نحو التغيير إلى المستقبل أو اليمين أى السعى نحو التغيير إلى الماضى وفى الوسط نجد الواقع الذى يقاوم التغير وبهذا يخدم الحفاظ على تراث وأساس راسخ من الهوية.

بقى أن نضيف هنا زاوية أخرى خاصة بفكرة تداخل مراحل التطور المختلفة، فكما ذكرنا أن هذه المرحلة هى بمثابة نقطة تحول من حالة السالب أو المفعول به إلى حالة الموجب أو الفاعل. أو من حالة الذى يأخذ ويتأثر إلى حالة الذى يعطى ويؤثر، أو اذا أخذنا بمفهوم بيولوجي، من حالة تغير الذات autoplasticity إلى حالة تغيير الاخر alloplasticity فالشباب هنا يجد نفسه لأول مرة يمارس الزعامة

على فئة أخرى الا وهى فئة الصبية التى تقع فيها مرحلة الكمون أو المثابرة. فالشاب بالنسبة إلى الصبى يمثل البطل الثائر الذى يقوم نيابة عنه بما يتمنى هو أن يفعله وهو بالنسبة للصبى المثل الأعلى الذى يقتدى به فالصبى بعد ان كان يقتدى بأبيه فى المنزل وينتمى إلى الاسرة أصبح ينظر إلى المدرسة والى الزعامات الشابة للاقتداء بها بالاضافة إلى تقليد أبيه ويسير فى خطاها بدلا من التبعية التامة لأسرته.

ولعلنا نستطيع أن تصور هذه العلاقات بالرسم البيانى بأن نضع رسمين للدوائر المتداخلة أحدهما مقلوب فوق الاخر هكذا :



شكل ٣ – ١٠

فاذا رقمنا المراحل من أسفل إلى أعلى فى اتجاه التطور الزمنى فان الترقيم المعاكس من أعلى إلى أسفل فى الدوائر المقلوبة يمثل المراحل المقابلة والمتفاعلة وسوف نجد كيف ان المرحلة الخامسة (الهوية) تتداخل مع المرحلة الرابعة (المثابرة). وفى حديثنا فيما بعد عن المراحل التالية سوف نشير إلى كيفية تداخل تلك المراحل المتقدمة مع المراحل السابقة.. ولعل هذا يبرر التعرض للحديث عن جميع مراحل الانسان فى كتاب عن الاطفال اذ أن الطفل لا يعيش فى فراغ بمعزل عن المجتمع انما هو يمثل جانبا من التفاعل مع المجتمع سرعان ما ينمو ويأخذ على عاتقه المزيد من الايجابية كفاعل ويؤثر بالتالى على الاجيال التالية وهكذا يستمر التراث وتبقى لك مجتمع عناصر هويته على مر الزمان بالرغم من تغيير الأفراد.

المرحلة السادسة، الألفة – عش الزواج الدافىء :

ان معركة الشاب تدور حول تأكيد الذات والبحث عن هويته بالانفصال عن أسرته وهو بانفصاله عن أسرته انما يمهد لتكوين أسرة جديدة، وبدون هذا الانفصال لن يستطيع أن يتحول انتماءه إلى أسرته الجديدة انما سيبقى متعلقا بالقديم ولن يستطيع العطاء لزوجته أو أبنائه وانما سيتمسك بعلاقة الاخذ التى ميزت انتماءه إلى أسرته الاصلية كما انه بنجاحه فى تأكيد ذاته يستطيع أن يتنازل عنها وعن الانغلاق داخل حدودها بأن يشارك انسانا أخر الحياة. كما أنه بتأجيله لممارسة عمله أو مهنته انما يحمل لاختيار لهذا العمل أو المهنة أساسا راسخا من الاستعداد والتدريب الطويل يستطيع فى نهاية هذه الفترة أن يعطى من زاد علمه وتخصصه للاخرين بعد أن شبع

أخذا. فهذه المرحلة التالية تعتبر تتويجا وتنفيذا لما كان مؤجلا فى المرحلة السابقة أو بمثابة رفع «الموراتوريوم» فتتحول مشكلة اختيار المهنة ورفيقة الحياة إلى التزام بممارسة هذا الإختيار وتنفيذه فى مجال الواقع الاجتماعى وهى بمثابة الانتقال من حالة الثورة إلى حالة الانجاز والتطبيق وتحول إلى حالة من التكيف النسبى مع الواقع. وهى مظهر آخر من مظاهر الجدل فى ا لتطور حيث تتبادل الذروة مع القاع فى تموج النمو الانسانى وتتبادل الثورة مع السكون والتطور مع التكيف.

وبالنظر مرة أخرى إلى شكل الدوائر المقلوبة نستطيع أن نرى العلاقة بين هذه المرحلة (السادسة) والمرحلة الثالثة (المبادرة الاوديبية). مما يلقى الضوء على بعض مظاهر تلك المرحلة. فالرجل (والمرأة) فى هذه المرحلة انما يعيد باختيار الرفيق فى الزوجية ما كان يتمناه فى طفولته من استحواذ على أُمِّه دونا عن أى طرف ثالث وهو أساسا أبوه، بالاضافة إلى أشقائه، فبالزواج يختار الرجل امرأة تكون له دون غيره وتفضله عن أى طرف ثالث ويقترب منها ويسعى نحو الالتحام الجسدى بها فيحقق ما كان يتمناه فى طفولته مع أمه، ولكن هذه المرة يحدث فى اطار متلائم مع الواقع وقابل للتطبيق. فالمجتمع يبارك العلاقة الجنسية فى اطار الزواج ويعطيها صيغة القدسية والعلانية. وبفضل هذا التوافق مع المجتمع والقيم الدينية نجد العلاقة الجنسية تنطلق إلى مداها فاذا أضفنا إلى ذلك هدف الانجاب نستطيع أن ترى ذروة اللقاء الجنسى فى التقاء خلية من الرجل (الحيوان المنوى) بخلية من المرأة (البويضة) فيصبح الالتحام بين اثنين حقيقة مادية وملموسة. ولعل هذا يفسر كيف أن البعض لا يجد المتعة الجنسية فى ذروتها فى وجود موانع للحمل بل أن بعض السيدات لا يذقن لذة الذروة فى الجنس الا فى لحظة الولادة ذاتها.

هذه المرحلة اذن هى اعادة لنشأة الأسرة بالعلاقة الثنائية بين الرجل والمرأة ساعيين وراء الالتحام الكامل الذى تصل ذروته فى الحمل والانجاب فتنقله بعد ذلك إلى العلاقة الثلاثية بعد أن يتم الانجاب ويدخل طرف ثالث وهو المولود الجديد بوجود هذا الطرف الثالث الذى هو امتداداً لذات الأب وذات الأم على جميع المستويات بادئا بالمستوى الجسدى وهو الامتداد الوحيد الذى يمثل أول وآخر ما يمكن أن يفضله الانسان على نفسه ويستطيع من خلاله أن يختبر قدرته على العطاء وانكار الذات فى اطار يكون فيه الطفل هو من يأخذ كل شيء والاب (أو الأم) هو الراشد الذى يعطى كل شيء. وهو طرف ثالث مشترك بين اثنين يستطيعان من خلاله أن يتحدا اتحادا عضويا حول هدف واحد. ومن هنا نشأت فكرة الزواج الكاثوليكى الذى يفترض أن الزواج اذا تم فهو لا ينفصم أبدا. الا أن مفهوم الاتمام هنا شامل ويتطلب قدرة حقيقية على انكار الذات من أجل الاطفال فان هذه القدرة اذا ما انعدمت فاننا نستطيع أن نفترض أن الزواج لم يتم على الوجه الأكمل وهذا هو الذى جعل الاسلام يحلل الطلاق مع جعله أبغض الحلال.

ان المنطقة الجسدية الغالية اذن فى هذه المرحلة هى الأعضاء التناسلية بما فيها أعضاء الانجاب وليست مجرد الأعضاء الممارسة للعملية الجنسية المحدودة وهى التى رسمها اريكسون فى الرسم الذى سبق أن أشرنا اليه. وهى تشمل ما يشار اليه فى التحليل النفسى بالتناسلية الحقيقية أو الناضجة وهى تحقيق للتناسلية التى بدأت فى المُراهقة.

ان التحدى الذى يواجه الانسان فى هذه المرحلة هو هل ينجح فى تكوين علاقة حميمة بها ألفة مع آخر أم يفشل بالاحساس بالعزلة والوحدة أو بتعبير اريكسون هو

صراع حول الالفة فى مقابل العزل «intimacy v/s isolation».

وكالعادة في كل نقلة من مرحلة فان النجاح يتوقف على مدى النجاح فى تخطى المراحل التى سبقتها بالاضافة إلى ملابسات وظروف المرحلة الحالية فالازمة عند كل نقلة والتى تحدث مثل نقلات الانسلاخ (فى الحشرات) Metamorphosis توقظ أزمات الماضى ويمكننا عقد المقارنة مع الأمراض العضوية فالمريض الذى يتغلب على مرضه قد يقضى عليه تماما أو يتوقف عند الحد من انتشاره فيتحول إلى الادمان أو ترك بقايا منها (كحامل الملاريا أو التيفود) ويستطيع ممارسة حياته عادية حتى يواجه أزمة جديدة وهنا تجد الأمراض القديمة فرصتها للعودة بمناسبة هبوط مقاومة المريض.

وكما ذكرنا ان نجاح الشاب فى تأكيد هويته وتحديد ذاته يجعله مستعدا للتخلى فى صورة مشاركة شاملة مع آخر بالزواج وكذلك فى حالة العمل بقبوله المشاركة مع فريق فيه علاقات مع زملاء ورؤساء ومرءوسين. وفى حالة النجاح فانه لا يشعر بتهديد لهويته أو لذاته اذا تنازل عن شيء منها لرفيق الزواج أوالعمل. أما اذا لم يكن قد اجتاز المرحلة السابقة فيعود إلى رغبات الشباب فى استخدام زوجته كمجرد وسيلة لتأكيد ذاته، يؤكد ارادته عليها بمحاولات السيطرة المختلفة، يتحدث فيها بدلا من التحدث اليها أو قد يعود إلى المثابرة فيضع طاقته فى عمله ويهمل أسرته مسخرا اياها لخدمة هذا العمل أو قد يعود إلى مرحلة المبادرة فيرجع إلى أمه أو أسرته بطريقة مباشرة أو غير مباشرة كان يبحث عن علاقات مع من هن فى حوزة رجل آخر (زوجة أبيه أو أمه) وقد يعود إلى مرحلة الاستقلال فيدخل مع رفيق الزواج أو العمل فى صراعات عنيفة وحالات تعذيب متبادل أو يعود إلى مرحلة الأمان فيطلب أن تلبى جميع طلباته دون تأخير أو تأجيل ودون طلب. واذا كنا نسوق هذه الأمثلة فهناك

اضعاف مثلها علاوة على التداخل فيما بينها والتلون الذى يحدث لكل مرحلة أثناء مرورها بالمراحل التى تتلوها فالزوج الذى يصر على أن يكون سيدا مطاعا لا يخالف له أمر يستمد هذا الموقف من تجميع لعدة مراحل فهو كالطفل فى المرحلة الأولى (كما أشرنا) الذى يعتبر نفسه مركزا للكون وان زوجته مثل أمه خلقت لخدمته بل ويكاد لعبادته. ولكنه ايضا يستمد هذا السلوك من المرحلة الثانية من حيث أنه يمارس العناد والعدوانية ويؤكد فصل ذاته عن زوجته ويسخرها لخدمته ليس من واقع ضعفه واحتياجه ولكن من واقع تسلطه وعنفوانه. وكذلك يستمد سلوكه من المرحلة الثالثة إلى المدى الذى تكون فى سيطرته على زوجته بها عنصر من عناصر الاستعراض (القضيبى) والاقتحام فهو يعترف بوجودها المستقل ويقبله على عكس المرحلة السابقة ولكنه يريد أن ينتصر على هذا الوجود وينافسه ويسيطر عليه، واذا نظرنا إلى ما استمده من المرحلة الرابعة فسوف نجد انه قد يبرر سلوكه تجاه زوجته من منطلق انه هو الذى يعمل ويكد. ولا بد لكى ينجح أن توفر له جميع سبل الراحة واذا انتقلنا إلى المرحلة الخامسة فانه قد يتحدث عن مفاهيم المجتمع للرجولة وكيف يجب أن يكون الرجل هو السيد، وهكذا. ولكن هذا لا يعنى أن كل ظاهرة سلوكية يمكن أو يجب أن تفسر بواسطة جميع المراحل فهذه قد لا تعدو أن تكون مجرد عملية هروب من الالتزام بالتشخيص أو التحديد فهناك عادة جانب متغلبأو ظاهر أو فى المقدمة. فالتشخيص يشمل كلا من القدرة على التعميم والتخصيص على السواء أى القدرة على رؤية دور جميع العوامل التى تشترك فى خلق ظاهرة ولكن فى نفس الوقت القدرة على تحديد خصائص هذه الظاهرة وكيف انها تختلف عن غيرها.

وكما سقنا من أمثلة فى مظاهر اضطراب مرحلة الألفة فى مجال علاقة الزواج فان المجال الرئيسى الاخر الذى قد نشاهد فيه مظاهر للاضطراب هو مجال العمل فيجب

أن نتذكر باستمرار تلخيص فرويد لمفهومه عن الصحة النفسية فى كلمتين. وهما : الحب والعمل. وبتأمل هاتين الكلمتين نجد انهما تشملان فعلا جميع مظاهر الحياة واذا امعنا التأمل فسوف نجد أن ارتباطهما بحرف الواو يعطيهما بعد آخر فالذى يحب على حساب عمله أو يعمل على حساب قدرته على الحب يعيش حياة ناقصة أى ليست صحيحة نفسيا. ولعل هذا ينقلنا إلى المرحلة التالية ولكن قبل ذلك يجب أن نشير إلى بعض المظاهر الاجتماعية لمرحلة الالفة.

فعلى مستوى الأسرة نجد التمسك بالعلاقة الثنائية بين الرجل وامرأته والاصرار على الامتناع عن العلاقات الأخرى المنافسة بهذه العلاقة وخاصة العلاقات التى قد تصل إلى المشاركة الجنسية أو المادية مع طرف ثالث فتهدد بذلك كيان الأسرة. هذا التمسك بالحفاظ على الأسرة هو الذى يعطى فرصة للطرفين ان يختبرا قدراتهما على اجتياز الأزمات المختلفة التى تعترضهما فى بحثهما عن الألفة والاقتراب كلا من الآخر. والمجتمع يساهم فى منع الاستسهال والهروب من العلاقة فيضع الدوافع المادية والمصالح المشتركة والروادع عند اللزوم التى تملى على الطرفين المحاولة والاستمرار فى العلاقة وقد ينجح الطرفان فى اجتياز الازمات وقد يكتفيا بالمعيشة داخل الاطار الاجتماعى للزواج والخضوع للضرورات الاجتماعية والمالية والقانونية دون ممارسة حقيقية للعلاقة الكاملة.

والأسرة التى لم تجتاز تحدى الألفة قد تضيع طاقتها فى الحفاظ على الشكل الخارجى لها ولا تستطيع ان تضع طاقاتها فى انجازات أخرى أو تسمح لافرادها بالانتقال إلى مرحلة آخرى. فكل هدفها الابقاء مثلهم على هذه العلاقة الحميمة والحفاظ عليها من الانهيار والمجتمع الذى يعيش هذا الخوف على انهيار الأسرة يؤكد هو بالتالى التقاليد التى تؤكد الشكل دون الجوهر.

فاذا انتقلنا إلى المجتمع إلى الأوسع نجد كيف أن الدول فى علاقاتها بعد اجتياز مراحل الأمان والاستقلال بالانفصال عن الدولة الكبرى التى تحتمى فيها وتقع تحت سيطرتها وبعد أن تأخذ بالمبادرة وتنمى ذاتها اقتصاديا ثم تؤكد قدرتها على العمل والمثابرة ثم تبلور هويتها وتؤكد شخصيتها - تستطيع الانتقال إلى مرحلة الألفة بالاقتراب من دولة أخرى دون ان تخاف عن المساس بشخصيتها واستقلالها. وهذا يفسر لنا اقتراب الأنداد الذى يحدث بين دول أوروبا الغربية وبالذات بين ألمانيا وفرنسا اللتين كان لهما تاريخ طويل من التصارع والتنافس أوصلهما إلى نقطة اقتناع بأنهما ندان متساويان وبالتالى فان التعاون بينهما يمكن أن يكون اقترابا حقيقيا وليس سيطرة من طرف على طرف آخر. وهذه الشكل يختلف عن تجربة الوحدة الأولى بين مصر وسوريا حيث كان هناك تصور (بغض النظر عن مطابقته للواقع أو عدمه) ان هناك طرفا يريد السيطرة على طرف آخر. بل ويختلف عن علاقة نفس تلك الدولة (ألمانيا وفرنسا) بالدول الأكبر وهى الولايات المتحدة فى مرحلة سابقة للمرحلة الحالية، حيث كان هذا التصور أيضا موجودا.

المرحلة السابعة - الانتاج : ثورة شباب ناضجة :

بعد أن يمارس الانسان اختياره فى مجال الحب والعمل فيتزوج ويرسخ أساس الاستقرار الأسرى ويختار العمل الذى يستطيع من خلاله أن يحقق نفسه فانه يصل إلى نقطة يسأل فيها (وماذا بعد ؟) فان هذه النقطة التى كانت تبدو بعيدة المنال قد تحققت وما كان يستحوذ على كل جهده وطاقته وما كان يمثل له أملا يسعى إليه قد

تحقق وأصبح واقعا مفروغا منه. فالزواج المستقر يعطيه التأكيد أنه مرغوب فيه من آخرا فانه مسئول عن تربية نشىء فى حاجة اليه، واجادته لعمله ونجاحه فيه يجعله واثقا من أهميته فى مجاله. ولكن أبناءه بعد أن كبروا قلت حاجتهم اليه واجادته لعمله قد وصلت إلى ذروتها ولم تعد تمثل تحديا أو خلقا أو تجديدا علاوة على أنه يكون غالبا حصل على أقصى ما يسعى اليه من جزاء مادى أو أدبى من خلال عمله هذا.

وهنا يبرز التحدى الذى يجعله يبحث عن الهدف الأوسع من دائرة الأسرة المحدودة فهو يبحث عن الشيء الذى يستطيع ان ينجزه على مستوى أعلى من تغطية احتياجاته الأسرية. انه يواجه احتمال ان يصبح مكررا آليا لما استطاع أن ينجزه وهنا فهو لابد أن يبحث عن معنى أوسع لحياته. انها الشبيهة بأزمة الهوية فى سن الشباب ولعل هذا هو الذى يفسر ظاهرة عودة المراهقة فى سن الأربعينيات.

وان كان السؤال هنا لا يدور حول : (من أنا) ؟ ولكنه أقرب إلى كونه : لم انا ؟ أى ما معنى حياتى والى ماذا أهدف. انها عودة الموجة الجدلية مرة أخرى بعد الاستقرار النسبى فى الألفة بعد ثورة الشباب إلى ثورة ثانية أشبه بعودة الشباب.

ان المرء فى هذه المرحلة يعود إلى نفس التساؤلات والاهتمامات التى كانت تشغله فى شبابه. فهو يهتم بالبحث عن ايديولجية تعطى معنى لحياته وكثيرا ما يتجه إلى الدين أو الفلسفة مرة أخرى فالقضايا التى تهمه لم تعد مرتبطة بمتطلبات الحياة الملموسة كالزوجة والأطفال والعمل والمال والنجاح الاجتماعى المحدود. فبعد أن أصبحت كل هذه الانجازات أمورا مفروغا منها يتساءل الانسان عن المعنى الأشمل لوجوده. وبعد أن كان تقييمه لنفسه مستمدا من احتياج أسرته على مستوى الحاجات

الأساسية واحتياج عمله على مستوى القيام بدور جزئى فى اطار علمى شامل وعام جدت تغيرات فى شكل هذه العلاقات، الاطفال تقدموا فى السن واصبح احتياجهم الملموس لابويهم أقل حدة، وقدرته على انجاز عمله لم تعد موضع اختبار ويستطيع أن يجد لنفسه مكانا يحكم كفاءته وجدارته. ان هذه التغييرات تضعه أمام أزمة تقييم الذات فهو باحساسه انه لم يعد أحد فى حاجة اليه كما كان، يجد نفسه مواجها باحتياجاته (فالانسان كثيرا ما يشبع احتياجاته للاخرين بواسطة اسقاطها عليهم واشباعها من خلالهم أى من خلال احتياجهم اليه) وهنا يبحث الانسان عن جيل أكبر وأوسع فى حاجة اليه بما ان أبناءه الأصليين بنموهم يحققون التحرر من ارتباطهم الأسرى من خلال مراحل المثابرة والهوية متجهين نحو ارتباطهم براشدين آخرين غير الأبوين، فالأب أيضا بالتالى يبحث فى الابقاء عامة عمن يحتاجون اليه ويصبح هو مسئولا عن دائرة أوسع من الأسرة الصغيرة وهكذا فهو من خلال اهتمامه بأبناء الآخرين يملأ الفراغ الذى تركه استقلال أبنائه عنه. ويشبع احتياجه للآخرين باسقاطه عليهم وهم يحتاجون اليه فيشبع نفسه باشباعهم.

ان الدور الذى يبحث عن الفرد (عنه) فى هذه المرحلة هو من خلاله يستطيع ممارسة العطاء للآخرين وهو عطاء نابع من داخله وليس مفروضا عليه بحكم الواجب أو أى شكل من أشكال القهر وهو لهذا أقرب ما يكون إلى عملية الخلق والابداع بمعنى ان اعادة اخراج ما سبق ان ادخله ولكنه بصورة جديدة تحمل طابعه. وهى ليست خلقا بالمفهوم الفنى المحدود ولكن خلق بمعنى الانتاج التوليد ويسمية اريكسون generativity.

واذا كان هنا تشبيه بيولوجى جسمانى لهذه العملية يجعلنا نتساءل عن الجسمية

التى تتحقق من خلالها هذه المرحلة لوجدناه قريبة من عمليات الحمل والولادة والرضاعة، فكم من فنان (وهم الذين يمارسون عمليات الخلق بأوضح صورها) يشبهون خبراتهم بالحمل والولادة ويعاملون انتاجهم الفنى كما لو كان وليدهم ولعل هذا يعبر عن وجود خلفية حسد للرحم والثدى Breast and womb envy فى كل انسان وراء الحسد الظاهرى للقضيب penis envy أو الفخر الظاهرى به. الأمر الذى يفسر لنا انتشار الخلق الفنى بين الرجال أكثر من الاناث.

ولكن ما الذى يحدث في حالة المرأة ؟.. ان مرحلة الانتاج فى المرأة تأتى عادة بعد انتهائها من متطلبات الأمومة من حمل ورضاعة بل كثير ما تبدأ بعد توقفها عن انتاج البويضات (الاباضة) أو انقطاع الطمث (سن اليأس)، انها عن طريق اتجاهها إلى عالم العمل والانتاج تمارس تعبيرها عن حسد القضيب فى مقابل حسد الرجل للرحم والثدى فهى تعمل وتنتج مثل الرجال ولكنها تحقق فى نفس الوقت احتياجا مشابها لاحتياج الرجل للامومة والرعاية وهو ان تنقل تعبيرها عن رغبتها فى الامومة إلى مستوى يتفق مع رغبة أولادها فى الاستقلال عنها فهى تنقل نشاطها من دائرة الأسرة الضيقة إلى دائرة المجتمع الأوسع. وهى فى هذا مستمرة فى التعبير عن احتياجها للأمومة، ولكن مع تطويره باضافة انها بعد دخولها عالم الرجل ومنافسته باثبات قدرتها على العمل مثله أى ان تحول دافعها للعمل من عمل يملأ فراغها بعد وظيفتها الرئيسية فى الأمومة إلى عملا يملأ حياتها ومن عمل فيه أخذ أو طاعة وتنفيذ إلى عمل فيه عطاء وقيادة وابداع. أى من عمل ذى طابع انثوى إلى عمل ذى طابع ذكورى بينما الرجل فى هذه المرحلة مستمر فى عمله والاضافة الاساسية له هو انه يحول الدافع إلى العمل من عملية انتفاع إلى عملية عطاء أى من المهارة إلى الخلق أو من تحد ومنافسة إلى

عطاء ورعاية أي من عمل ذى طابع ذكورى إلى عمل ذى طابع انثوي.

ومن هنا نرى مكان التعديل الذى أدخلناه على رسم (اريكسون) انظر شكل ٣ - ٦، ٣ - ٧ بأن جعلنا خط النمو فى اتجاه رأسى ينحرف إلى الجنسين مع ابقاء الاختلاف الذى ينخفض فى الألفة عند المشاركة الزوجية مع يزداد فى المرحلة الرابعة (المثابرة) حيث الكمون والابتعاد عن الجنس الآخر حتى تأتى المرحلة الخامسة (الهواية) حين تتعدد الدوافع البيولوجية لجذب الجانبين (الذكورة والأنوثة) وخاصة فى المرحلة الثالثة (المبادرة) ثم ابقاء الاختلاف المكمل للادوار الأسرية أى أدوار الأبوة والأمومة يقتربان من واقع الحياة المشتركة فالرجل يشارك زوجته فى اهتماماتها ومشاعرها ثم يقتربان أكثر فى مرحلة الانتاج كما أشرنا.

وبهذا المعنى فاننا نستطيع ان نعتبر ان قمة التفرقة بين الذكر والانثى كادوار هذ التى نشاهدها فى قمة مرحلة المثابرة (الكمون) حيث انخفاض الجاذبية بين الجنسين يجعلهما يبتعدان ويسعيان نحو تأكيد الفروق بينهما بدلا من التشابه وهذا يفسر لنا انتشار الصداقات بين الجنس الواحد فى هذه السن والتى قد تصل إلى درجة الجنسية المثلية. وهى تعبير عن نفور من الجنس الآخر وتأكيد الاختلاف عنه أى أن النمو الانسانى الحقيقى له اتجاه يتجاوز الجنس الأمر الذى يفسر لنا كيف أن الانسان كلما زاد نضجه كلما كان الجنس بالنسبة له تعبيرا ثانويا عن وجوده الانسانى وخادما له وليس العكس. فالخطأ الشائع عن أصل خلق الانسان - ان الاصل كان آدم وخلقت حواء من ضلعه - وهو نابع من الفهم المنحاز للذكر ولعل الاشارة إلى خلق الرجال والنساء من نفس واحدة نجدها فى الآية : «يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيرا ونساء» (١).

---

(١) سورة النساء

واذا فشل الانسان فى تحقيق هذا الانتاج فانه يصبح راكدا ويتحول إلى آلة تكرر نفسها دون معنى كالاسطورة السيزيفية. ويسمى اريكسون صراع هذه المرحلة بالانتاج في مقابل الركود generativity v/s stagnation فهو خال من الداخل كما يعبر عن الشاعرت «س» اليوت T.S. Eliot وهذا الاحساس بالركود والصد أو الملل هو أقرب إلى الموت من الحياة

« نحن الرجال الخاوين »

نحن الرجال المحشوين »

ويحاول المرء ان يتخطى هذه الأزمة الوجودية بخطوط الدفاع المختلفة فقد يعود إلى مرحلة الألفة ويعوض فشله فى العطاء والارتباط مع الدائرة الاجتماعية الأوسع بأن يزداد التصاقا بزوجته فى علاقة كفيلة symbiotic أو قد يسعى لابقاء ابنائه فى حالة تعلق مشابهة رغم استغنائهم عن تلك المرحلة فيعيق استقلالهم. وقد يزداد تقهقرا فيعود إلى مرحلة الهوية فيعاود نشاطه الشبابى ويبدأ فى البحث عن المتعة الجسدية فى صورة المغامرات الجنسية المتعددة أو يعاود الحيرة الشبابية والبحث عن حركة ايديولوجية أو دينية يرتمى فى أحضانها أو قد يتقهقر خطوة أخرى ويبحث عن التعويض فى المزيد من العمل الالى والاهتمام المفرط بالمهارة على حساب الخلق او اذا عاد خطوة أخرى فانه يعود إلى المباهاة والتنافس والمغامرات التى عاشها فى المرحلة الثالثة او خطوة اخرى نحو مرحلة الاستقلال حيث تعود اليه صفات مثل الوسوسة أو قد يهتم فقط بالشعائر الدينية أو خطوة اخرى فيبحث عن المتع الحسية فيزيد اهتمامه بالاكل والشرب، وقد يفرط فى الطعام أو يتحول إلى المشروبات الروحية

والمخدرات التى تعيد اليه تلك الجنة التى فقدها حين كان مركزا للكون.

اذا انتقلنا إلى المجتمع بادئين فيه بالأسرة نستطيع ان نجد التقابل بين احتياج الاب فى هذه المرحلة وبين ظروف الاسرة فالصغار يكبرون ويسعون إلى الاستقلال عن آبائهم والعلاقة شبه الكفيلة التى كانت موجودة بين الجيلين اصبحت تتحول الى معركة استقلال لفك هذا الارتباط وان كان الاب فى هذه الحالة هو الذى يسعى نحو الاستقلال عن أسرته. وعن اعتماده عليها كمصدر تبرير لوجوده وبواسطة انتمائه للمجتمع الاوسع. اننا نرى كيف ان هذه المعركة من أجل الاستقلال من جانب الاباء فى هذه المرحلة السابقة هى الصورة المعكوسة لما يحدث فى المرحلة الثانية أى مرحلة الاستقلال عند الطفل، الامر الذى يطابق ما نجده فى رسم الدوائر المقلوبة حيث الالتقاء بين الدائرتين ٢، ٧.

هذا الاب الذى يستطيع ان يحقق الاستقلال ويتحرر من ارتباطه باسرته هو الذى يستطيع ان يترك اسرته بالتالى تتحرر منه بادئا بزوجته ثم ابنائه الكبار الذين يحتم نموهم فى معركة الاستقلال، وبنجاح انتشار روح الاستقلال هذه على مستوى المجتمع إلى الطفل فى مرحلته الثانية حيث يكون الاستقلال هو معركته الرئيسية فاننا نستطيع ان نرى هذا التكامل والتفاعل بين الأباء والأبناء وبين المجتمع والفرد.

والأسرة التى تنتشر فيها روح الاستقلال هى ايضا الأسرة التى تسمح لكبارها بالانتاج فالرجل لا يستطيع ان يضع طاقته فى العمل المنتج الخلاق اذا كان اعتماد أسرته عليه فى كل صغيرة وكبيرة يصبح عائقا لتفتحه وممتصا لطاقته. وعملية الانتاج الخلاق ذاتها لا غنى لها عن قدر من الشجاعة فى فك الارتباطاتوالقدرة على تجاوز

العلاقات الكفيلة والتى تشمل العلاقة الكفيلة بكل ما هو ماض من أشخاص وأفكار وتقاليد. فالذى يستطيع ان يستقل عن هذا الماضى هو الذى يستطيع ان ينتج ويخلق، وافراد مثل هذه الأسرة بقدر ما يستطيع الاباء ان يمارسوا الانتاج بقدر ما يسمحوا لهم بالاستقلال الذى يسمح لهم بالتالى بالخلق والابداع.

واذا انتقلنا إلى المجتمع الأوسع فسوق نجد كيف ان الحضارات تزدهر وتخلق كلما كانت قد تخطت المراحل السابقة، فبعد أن تحصل الدولة على استقلالها وتنمو اقتصاديا بالمبادرة ثم تعمم رخاءها بين أبنائها بالمثابرة ثم تسعى لخلق هوية لها من الاستقلال الذاتى المتبادل فانها هنا ايضا تستطيع ان تتجه نحو الانتاج والعطاء والخلق، اذ أن هذه الروح من الاستقلال والانتاج تعم المجتمع أيضا من الداخل وتشجع الافراد على ممارسة انتاجهم، ولننظر إلى الانتاج الحضارى والفكرى فى العصر العباسى بعد أن أصبحت وحدة الأمة حقيقة مستقرة ومفروغا منها، أو لننظر إلى الولايات المتحدة بعد ان استقرت فى الداخل فحولت اهتمامها إلى الخارج فى صورة الخلق العلمي، أو إلى الاتحاد السوفيتى بعد استقرار نظامه.

المرحلة الثامنة – التكامل : ألا هل بلغت.. اللهم فاشهد :

اذا كانت المرحلة السابقة (الانتاج) تعبر عن جوهر وجود الانسان ككائن حضارى له تاريخ ينقله عبر الاجيال بالتعليم ومن خلال مجتمع فى مقابل العلم الغريزى الذى يتوارثه الحيوان أى أن هذه المرحلة تعبر عن وجود الانسان فى « فعلولته» ان المرحلة الثامنة والتى يسميها اريكسون مرحلة تكامل الذات أو للاختصار مرحلة التكامل، وهى

الأخيرة فى حياة الانسان لهى اختيار المدخل إلى الابدية حيث يستعد الانسان لممارسة وجوده فى كينونته ففى هذه الحقبة الاخيرة من عمر الانسان يكون قد اتم رسالته فى دنياه « .. اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا ...»(١)

فى هذه المرحلة الاخيرة فى حياته وقد عاشها كاملة وواجه جميع التحديات وأتم كل الانجازات بأفضل ما يستطيع فى وجود المعطيات التى احاطته بادئا من تكوينه البيولوجى الجسمانى إلى الكيانات الاجتماعية والتاريخية التى تواجد فيها فان يستعد للتخلى عما تبقى له فى هذه الدنيا وهو جسده برمته فبممارسة وجوده بالاخذ ثم بالعطاء، والاخذ والعطاء معا اصبحا جزءا من تيار مستمر بغض النظر عن وجود جسده وهو لهذا يستطيع ان يتركه بعد ان كان يتشبث به. ونظرا لانه عاش حياته كاملة ومارسها باقصى ما استطاع وشبع منها فلم يعد عنده ما يتشبث به أو يندم على ضياعه. لقد وصل إلى حالة السكينة والاطمئنان واصبح راضيا عن نفسه قادرا على العودة إلى اصله (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية» (٢) ولعل هذا الرضى عن النفس مصدر حالة من النرجسية Secondary narcissism أى حب للذات بعد المرور بمراحل الحب للغير يجعله حبا للغير مبنيا على حب للذات أى حب للآخرين له طعم جديد ليس فيه اجبار ونابع من تلقائية. فلانى احب نفسى ونفسى هى مثل نفسك فانى أحبك.

ولانه عبر عن كل ما نفسه من رغبات واشبع كل ما لديه من احتياجات ومارس

---

(١) سورة البقرة

(٢) سورة البقرة

الشيىء ونقيضه فاطاع وعصى وطمع فى الجزاء وخاف من العقاب لم يعد لديه من بقايا الصراع الا القليل ولم يعد عنده من الرغبة المضادة ما يحتاج إلى اشباع أو تحكم وحرمان فقد اقترب من حالة السكون التام أو النيرفانا أو السكينة التى تصل إلى ذروتها فى الموت، (هناك بعض حالات تأخذ لحظات الموت صورة ذروة المتعة الجنسية) ولهذا فان الموت بالنسبة له أمر طبيعى ينتظره بدون خوف أو رغبة ملحة ولكن باستعداد وتقبل. ولعل هذا التشابه بين نهاية الحياة وبدايتها ليس بغريب بالنظر إلى الجدلية فى حياة الانسان، فبانتهاء جسد ما فى الوجود على الأرض يتسع المكان لوجود جسد آخر أو كما يقول تينيسون Tennyson فى وصفه لموت الملك ارثر :

«لا بد للقديم ان يترك مكانه للجديد لئلا يتحول الخير إلى عفن وكيد»

والرحم الذى يخرج منه المولود يشبه القبر الذى يعود اليه فى نهاية حياته وحالة الضعف الجسمانى الذى يولد بها الطفل القريبة من حالة جسم الكهل والصغر التى يصل إليها فى النهاية قريبة فى شكلها من صغر البداية «جئنا من التراب والى التراب نعود».

نستطيع ان نجد هذه العلاقة بالنظر إلى شكل الدوائر المقلوبة، فالدائرة الثامنة تلتقى مع الدائرة الاولى. ويشير اريكسون إلى هذه العلاقة بالرجوع إلى معانى الكلمات فكلمة trust تعنى (حسب تفسيرها بالانجليزية) الاعتماد المؤكد على امانة (استقامة) الاخر. وتشير كلمة امانة (استقامة) إلى معنى آخر من معانى كلمة integrity وايت تعنى الكمال والتمامية، ويضيف : ان الاطفال الاصحاء لا يخافون الحياة اذا كان لدى اكبار من التكامل (الكمال) ما يجعلهم لا يخافون الموت (١) وهكذا

Ericson: "Childhood and Society", Norton, New York, 1950

نجد العلاقة بين الائتمان عند الاطفال والتكامل عند الشيوخ، فالشيخ الذى يقود اليوم انما يفعل ذلك من منطلق القيادة التى يستعد لتوليها بالغد.

ما الذى يحدث اذا فشل الشيخ رغم السنين فى الوصول إلى حالة التكامل هذه؟ انه غير مستعد لتقبل الموت ويخافه فهو غير راض عن حياته ويتمنى لو أنه استطاع ان يحياها مرة أخرى ويكمل نواقصها ولكن السنين فاتت، وكتب قلم القدر كلمته ولا طريق لمحوها، انه يقف أمام هذه الحقيقة باليأس وهو ما يقابل التكامل. أو على تعبير اريكسون « despair فالذى حدث قد حدث ولا أمل فى اصلاحه واذا استطاع ان يخفى اليأس فلعله يخفيه وراء الاشمئزاز المستمر. انه اكتئاب الشيخوخة وما قد يصاحبه من محاولات على خطوط الدفاع المختلفة. فقد يتشبث الشيخ بالانتاج ويسعى للاستمرار فى عمله السابق أو عمل غيره حتى الموت، فاذا لم يستطع مات (ولنذكر دى حول وتشرشل، وغيرهم) وقد يعود خطوة إلى الخلف فيلتصق بزوجته فى علاقة كفليه ويعتمد عليها ويتشبث بها، أو خطوة أخرى بسعيه إلى الشباب بأن يغازل الفتيات أو يشارك أحفاده الشباب هواياتهم، أو خطوة أخرى بأن يمارس عمله مثابرا كأن يهتم بالطهو أو الأعمال المنزلية أو الزراعية أو خطوة أخرى بأن يقلب الاية الاوديبية فيتعلق بابنته المتزوجة أو بزوجة ابنه، أو يعتمد على أولاده ويعوق استقلالهم أو يعود طفلا بمرضه وشيخوخته فيطلب الرعاية الكاملة بأن يتولى الآخرون اطعامه والامثلة لا حصر لها فى الجانب الايجابى أسوة بالجانب السلبى.

واذا انتقلنا إلى المجتمع نجد على مستوى الأسرة كيف تخلق الأسرة مكانة خاصة فيها للجد فتلبى له احتياجاته وتسمح له بممارسة وجوده على كافة المستويات فكثيرا ما تكون العلاقة متبادلة الفوائد كأن يترك الاحفاد مع الاجداد بينما الاباء يتفرغون

لاعمالهم فى الدنيا يشترك الابناء مع الاباء فى مسئولية الرعاية للشيوخ.

وقد ننتقل ببعض هذه المهام للمجتمع حيث نجد المؤسسات التى ترعى الشيخوخة وغيرها التى تفسح لهم مجالات العمل الذى يغذى فيهم تقييم الذات وبعد ذلك نجد التقاليد المختلفة التى تحافظ على ذكرى الآباء بعد موتهم ولعل الاهرامات التى تركها الفراعنة والمعابد والتماثيل رغم ما قد يبدو فيها من عبادة للفرد الا أنها تعبر عن هذا الاحترام للتراث من خلال تجسيده فى شخص فرعون، واذا كان الانسان فى عصوره الحديثة لا يلجأ إلى هذا التمجيد للقيادات الفردية فذلك لوعيه المتزايد بالقيم والتراث والمؤسسات فى حد ذاتها وهى لم تعد فى حاجة إلى شخص يجسدها لتبقى.

ولو أخذنا مستوى الدول للمقارنة مع هذه المرحلة لوجدنا ان الدولة بعد أن أثبتت وجودها وسلطانها تنتقل إلى حالة من الشيخوخة المسلوبة من القوة المادية ولكنها حاصلة لقوة الحكمة والتراث فاوروبا بالمقارنه بالدول الكبرى (الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفيتى) تعتبر ذات وزن محدود عسكريا واقتصاديا ولكنها مازالت منبع الفكر والفن فى العالم الغربي، والولايات المتحدة ازاءها طالما لم تتجاوز تلك المرحلة من التسلط فان ما تقدمه للحضارة الانسانية لا يعدو أن يكون رقعا حضارية مفروضة بالقوة وضعها وضع الجسم الغريب الذى لن يلبث أن يمتص أو ينفصل ولعل المثل الصارخ فى ذلك هو محاولة فرض اسرائيل كجسم غريب على عالم الشرق الأوسط بل العالم الافريقى الاسيوي. ولعل ما يؤيد تلك النظرة هو قيام تلك الدعوات الخافتة الاصوات داخل اسرائيل والتى تدعو إلى ان لا أمل فى بقائها الا باندماجها مع ما حولها كبديل لعقلية التسلط التى ليست الا امتدادا وتحقيقا للعقلية المشابهة الاصلية فى الولايات المتحدة.

نظرة إلى تداخل المراحل - جدلية حياة الانسان :

ان من تعريفات العلم انه محاولة تخفيض التباين إلى تطابق To reduce diversity to identity فالأشياء تبدو لأول وهلة مختلفة ولكن اكتشافات العلم المستمرة تخفض تلك الاختلافات باضطراد فقد نبدأ بأن الشجرة تختلف عن الجبل وعن البحيرة ثم نرى فيها تشابها من حيث أن كلا منها تحوى السائل والصلب، وقد نخفضها إلى مادة وطاقة واخيرا نرى أن المادة والطاقة ما هما الا مرحلتان من وجود نفس الشيء بل ان الوجود نفسه ما هو الا تبادل بين الوجود والعدم (وهو ما يعطينا الموجات والجزئيات أو بعبارة أخرى بين الشيء وضده.

واذا كان هذا ما وصل اليه العلم الحديث بعد جهد قرون فانه كخبرة انسانية يمثل نوعا من المعرفة موجودا منذ آلاف السنين ويستطيع من عاش هذه الخبرة ان يقرءها بين سطور الكتابات الحكيمة سواء فى الكتب المقدسة أو فى الأعمال الفنية العظيمة (فى الشعر والموسيقى والرسم وغير ذلك).

ولعل هذه المحاولة المتواضعة للربط بين القديم والحديث فى العلم بصفة عامة وفى علم النفس خاصة ليست الا بداية ضمن بدايات عديدة.

فان المحاولة التى بذلناها بالنظر إلى مراحل تطور الانسان كمجموعة موجات تعبر عن العلاقة الجدلية بين الشيء وضده فى صورة الامواج المتتالية والأمواج الصغيرة تحتويها الأمواج الكبيرة هى محاولة للربط بين علم النفس وعلم الطبيعة وبين هذا وما أحسه الحكماء قديما وعبروا عنه بالفن أو الدين.

فالوجود يتبادل مع العدم والحياة مع الموت والطفل فى مرحلته الأولى مع الكهل

فى مرحلته الثامنة. ووجدنا مثل هذه العلاقة الجدلية بين الرجل فى المرحلة السابعة والطفل فى المرحلة الثانية كما وجدناها بين السادسة والثالثة وبين الخامسة والرابعة. ولعل رسم الدوائر المقلوبة هو محاولة لتصوير هذه الحقيقة.

وجدنا من جانب آخر الاربع مراحل الأولى تمثل حالة تتصف بصفة عامة وهى الأخذ والتتلمذ والسلبية ازاء المراحل الاربع الأخيرة التى تأخذ لنفسها صفات عامة تتميز بالعطاء والقيادة والايجابية والخلق.

ووجدنا فى كل نقطة بقايا من كل نقطة اخرى سابقة علاوة على بوادر وامكانيات كل نقطة اخرى تالية. (ولعلنا من خلال هذا نجد مدخلا إلى ظواهر ما فوق الحواس مثل التنبؤ بالمستقبل وتوارد الخواطر) والامثلة التى سقناها فى كل مرحلة عن تلك الآثار والامكانيات ليست الا جزءا صغيرا من التباديل والتوافيق التى تستطيعها ولعل القارئ يستطيع أن يضيف اضعافها . فلا يخفى علينا أننا أحيانا نشير إلى طفل بأنه عجوزا، أو إلى عجوز بأن لديه «براءة الطفل فى عينيه» بل نستطيع أن نجد فى خبراتنا اليومية تكرارا لكل ما حدث وسوف يحدث لنا فاننا حينما ندخل فى النوم كثيرا ما نستطيع أن نتخيل لحظة الدخول فى القبر (مما يفسر بعض حالات القلق والخوف من النوم) وهناك مواقف يومية نمر بها بخبرات مركزه تكاد تحوى الماضى والمستقبل معا ونخرج منها باحساس بالميلاد الجديد.

ولهذا فقد فضلنا ان نضع الاطار العام للمراحل وتداخلها تاركين التفاصيل لتأملات القارئ.

ولو نظرنا إلى مراحل التطور هذه من منطلق جدل الرغبة والرغبة المضادة لوجدنا

كيف أن المرحلة الأولى تمثل تغليب الرغبة اذ ان الطفل هنا لا يكاد يتحكم فى رغباته وهو يسعى نحو الاشباع الفورى بشكل تلقائى بينما فى المرحلة الثانية نجد الاهتمام يزداد بالتحكم فى الرغبة أى الرغبة المضادة فتحكمه فى عضلاته وفتحاته وعملياته الاخراجيه يمثل هذا التغلب للتحكم والابتعاد عن التلقائية. ومن هذه الاطروحة والاطروحة المضادة نجد الجماع متمثلا فى المرحلة الثالثة وهى عبارة عن عودة فى اتجاه الرغبة والتلقائية بعيدا عن التحكم ففى هذه المرحلة تصبح المبادرة هى محور وجود الطفل ونجده مليئا بالحيوية وحب الاستطلاع والتلقائية والخلق. ومع استقرار هذا الجماع فانه يتحول بالتالى إلى اطروحة جديدة تقابلها الاطروحة المضادة فى صورة المرحلة الرابعة حيث يعود البندول مرة اخرى نحو التحكم والبعد عن التلقائية ففى مرحلة المثابرة يتلقى الطفل المعلومات ويمتص خبرات الآخرين ويحد من ثورته وتنافسه مع من هم مثله، ومع استقرار هذه المرحلة كأطروحة مضادة للمرحلة الثالثة نجدها تكون جماعا لتفاعل الثالثة مع الثانية كما انها تصبح اطروحة جديدة للمرحلة الخامسة التى تتلوها وهى مرحلة الهوية ففى هذه المرحلة يعود البندول مرة اخرى نحو الرغبة التلقائية فى مقابل التحكم فى المرحلة الرابعة، وهنا نجد ثورة الشباب ومحاولات الخلق المختلفة والرغبة فى تحقيق الذات والتعبير عن النفس. فمع بداية هذه المرحلة نجدها تمثل الاطروحة المضادة لاطروحة المرحلة الرابعة ومع استقرارها تصبح جماعا لتفاعل الرابعة مع الثالثة ثم تصبح هى أطروحة للمرحلة التى سوف تتلوها أى السادسة، فهذه تأتى بمثابة رد فعل للخامسة من حيث انها تمثل عودة التحكم، فثورة الشباب تهدأ والغرائز تستقر والعلاقات تتقلص فى الزواج ويعود الهدوء مرة اخرى وهكذا مع استقرار تلك المرحلة تصبح جماعا لما سبقها من تفاعل ثم

تصبح هى الاطروحة بالنسبة لما سوف يتلوها أى السابعة التى تأتى بمثابة الاطروحة المضادة حيث يعود البندول مرة أخرى نحو الرغبة والتلقائية فالمرء فى هذه المرحلة يعطى لنفسه العنان ويمارس الجماع بين تفاعل المرحلتين السابقتين ثم يصبح الاطروحة بالنسبة للمرحلة التى سوف تتلوها أى الثامنة التى تمثل عودة مرة اخرى إلى التحكم والهدوء. فهنا يزداد المرء حكمة واستقرارا ويقل فعالية ومع استقرار هذه المرحلة تصبح جماعا لما سبقها من صراع (الذى كان عبارة عن جماعات متتالية لصراعات متتالية) وهى من حيث أنها المرحلة النهائية فى حياة الفرد فقد تبدو كأنها نهاية لعملية الجدل ولكننا يمكننا النظر اليها على انها بصفتها جماعا على مستوى الفرد فان الاطروحة تمثل انتهاء حياة الفرد أى الموت فى مقابل بداية حياة فرد آخر أى الميلاد الجديد وزوال الفرد فى مقابل بقاء المجتمع أو النوع، أو موت الكائن الحى فى مقابل الحياة واستمرارها فى التطور.

الفصل الخامس

الأسـرة

الطفل هو المؤشر الذى يعبر عن حالة الأسرة وقد يقع هذا الدور على طفل بعينه دون بقية أفراد الأسرة لعوامل فى الطفل ذاته الا أنه يلقى فى النهاية معبرا عن نقطة الضعف فى هذا الكيان الجماعى. فالطفل المضطرب ليس بالضرورة مجرد طفل شاذ أومريض ولكنه غالبا ما يكون المرض الذى يشير إلى وجود أصل الداء فى دائرة الأسرة. ومقابل ذلك فان علاج الطفل لا جدوى منه اذا ما أهملنا تأثير الأسرة عليه بل قد نكتفى فى بعض الحالات بعلاج الأسرة لكى تتحسن حالة الطفل الا أن الاغلب أن العلاج يتناول الجانبين – الأسرة والطفل – اما كل على حدة أو فى اطار واحد (وهو ما يعرف بالعلاج الأسرى أو العلاج الجمعى الأسرى) فدراسة الأسرة اذا أمر لا غنى عنه فى دراسة الطفل.

رغم اختلاف الاشكال والتطورات على مر التاريخ وعبر الحضارت المختلفة فان هناك دائما شكلا من أشكال الأسرة يكون البناء الأساسى للمجتمع. فهناك الاسرة ذات الأب الواحد مع تعدد الأمهات وهى وان كانت قليلة الانتشار (حتى فى العالم الاسلامى حيث هى مباحة دينيا واجتماعيا) الا انها أكثر انتشارا من الظاهرة المعاكسة حيث الأم واحدة والآباء كثيرون. أو حيث التعدد لكلا الجانبين (عدد من الازواج وعدد من الزوجات) والشكل الغالب للأسرة هو الزوج الواحد مع الزوجة الواحدة والابناء منهما.

الا أنه حتى هذا الشكل التقليدى يحوى تباينا شديدا فى تكوينه. اذ أن العرف فى كثير من المجتمعات يعطى صورة مختلفة عن هذا المظهر. مثلا فى وجود سهولة الطلاق أو كثرته. فان ظاهرة تعدد الزوجات أو الأزواج يأخذ شكل التعدد المتتالى زمنيا بدلا من التعدد فى نفس الفترة الزمنية، أو قد نجد فى بعض فئات المجتمع حين توجد صعوبات فى الطلاق أن العرف يقضى بوجود عشيق أو عشيقة لأى من الزوجين أو كلاهما. وقد يكون هذا الوضع معلنا أو مخفيا ولكنه مقبول اجتماعيا. على مستوى آخر للتباين فى شكل الأسرة فسوف نجد الاسرة التى ليس لها كيان مستقل وانما هى جزء من أسرة ممتدة عرضا أو طولا أى تجمع الاشقاء وأولاد الاعمام فى الامتداد عرضا وتجمع الجد وأبنائه وأحفاده فى الامتداد طولا. وقد تتجمع عدة أسر فى هذه الحالة وتكون عشيرة أو قبيلة. وكلما قلت صلات النسب كلما اقتربنا إلى صورة المجتمع الأكبر الذى كثيرا ما يكون المسيطر النهائى على الأسر التى يحتويها. وقائد هذا المجتمع هو الأب الرمزى للجميع الا أنه مع مثل هذا التوسع فان الأسرة النووية تستعيد كيانها وسيطرتها على حياة أبنائها ولكن ثمن ذلك هو العزلة. ومن هنا نشأ الاتجاه الحديث نحو جمع الأسر بغض النظر عن روابط القرابة فى صورة شبيهة بالأسر الممتدة، وهى الكوميونات. وقد تكون دوافعها اقتصادية تنظيمية أساسا مثل كوميونات الصين أو قد تكون هناك دوافع أخرى متداخلة معها (مثل تعويض الشعور بالوحدة أو التغلب على الملل مثلما نجد فى الكوميونات التجريبية فى الغرب. ولعل هذا يشير إلى أن الشكل التقليدى للأسرة النووية وان أكثر الأشكال استقرارا الا أنه لا يمثل الشكل النهائى وأن الأسرة أسوة بجميع مظاهر الحياة الانسانية تمر بتجارب وتعديلات سعيا وراء التطور المستمر إلى الأفضل.

أسرة الأصل وأسرة الانجاب :

حينما نتحدث عن الأسرة فلابد أن نميز بين أسرة الأصل family of origin وهى الأسرة التى يأتى منها الفرد فتشمل أساسا أبويه وأشقاءه وبين أسرة الانجاب family of procreation وهى الأسرة التى يكونها الفرد بعد انفصاله عن أسرة الاصل ثم زواجه وانجابه. وأهمية دراسة الجانبين هو أن كثيرا ما تكون أسرة الانجاب مجرد تكرار جبرى لاسرة الأصل. فالزوج كثيرا ما يعامل زوجته كما تعلم من انطباعه عن معاملة أبيه لأمه. كما ان معاملته لأبنائه كثيرا ما تأخذ نمط معاملة أبيه له. وغالبا يحدث هذا بطريقة لا شعورية بل جبرية. فالشاب الذى يعد نفسه بأنه لن يعامل أبناءه كما كان أبوه يعامله يتحول بعد الزواج والانجاب إلى صورة من أبيه وأحيانا تكون هذه الصورة بالسالب أى بممارسة أفعال رديدة تعبر فى جوهرها عن الفعل المعاكس الذى يريد تجنبه فمثلا تتحول القسوة المفرطة إلى دلال مفرط وهى ليست الا قسوة مقنعة).

الا ان هذا التكرار الجبرى للماضى ليس الا الصورة غير المتطورة وغير النامية والنكوصية للاسرة ويقابل هذه النزعات المحافظة نزعات مضادة تقدمية بمعنى السعى وراء التغيير والتحرر من الماضى وفى هذه الحالة قد تشوب هذه المحاولات عناصر دفاعية كالفعل الرديد أو تغييرات مباشرة ولكن توجد بالاضافة إلى ذلك نزعات تطورية حقيقية تؤدى إلى تغيير جوهرى فى علاقات الأسرة الجديدة وان كانت تبدو أنها تغيير كمى فقط الا انها مع التراكم قد تتحول إلى تغيير كيفى.

وقد يكون هذا التطور فى شكل تذبذب بين نقيضين فاذا كان الأب قاسيا يصبح

الابن مفرطا فى التسامح ثم يعود الحفيد قاسيا. ومن هنا مشاهدة يونج Jung أن الأطفال كثيرا ما يعبرون عما فى لاشعور الآباء فاذا كانت القسوة هى الظاهرة فان المقابل اللاشعورى لها والتى تكون القسوة فعلا رديدا له هو التسامح المفرط والدماثة والعكس صحيح.

وهكذا بين نزعات المحافظة ونزعات التطور ينتقل التراث الحضارى من جيل إلى جيل وان كان يتعرض للاضافة والتطوير بدرجات مختلفة.

وظائف الأسرة :

لعل الذى أبقى على الأسرة ككيان إنسانى اجتماعى أساسى هو انها تؤدى وظائف اساسية للإنسان والمجتمع نستطيع ان نصنفها كالآتى :

١- *تنظيم العلاقات العاطفية والجنسية لافرادها :*

اذا بدأنا بأساس الأسرة وهو إلتقاء رجل وإمرأة بغرض ممارسة علاقة جنسية وعاطفية مستقرة نجد ان الأسرة تخلق المجال لمثل هذه العلاقة. إذ ان العلاقة الجنسية علاقة محدودة وقد تطول مدتها لعدة دقائق وتنتهى الا ان وجود العاطفة كغطاء لهذه العلاقة يضفى عليها درجة من الديمومية قد تطول ولكن ليس بالضرورة إلى الدرجة التى تسمح بالإستقرار الكافى للإنجاب والتربية. ومن هنا نشأت الضرورة لإعطاء مثل هذه العلاقة الجنسية اطار اجتماعيا يفرض عليها ديمومة تكفل الاستقرار الذى يسمح بالانجاب وبالتالى تكوين الجو المناسب لنشأة الأطفال.

بالنسبة للأطفال فان الاستقرار الذى يحتاجونه يكفل لهم بواسطة هذا التنظيم الذى يضيف اليه استقرارا بان يعزل عامل المنافسة الجنسية بين افراد الاسرة الواحدة بحيث لايشعر الاب بالخوف من ان يحل ابنه محله لدى زوجته فتقضى عليه فى المهد او على احسن الفروض يطرده من الأسرة.

اى ان الوظيفة النفسية للاسرة متعددة الأطراف وتحقق المجال للنمو النفسى لجميع الافراد على حسب مرحلة كل منهم. فبداية تكوين الاسرة تتفق مع مرحلة الالفة (السادسة) حيث يتخلى الفرد عن ذاته التى صارع من اجل اثباتها فى المرحلة السابقة (الهوية). وهى ألفة تزداد مع الإنجاب وتربية الأطفال الصغار. ومع نموهم فان الزوجين يجدان الفرصة للانتقال إلى المرحلة التالية حيث يمارسان العطاء للمجتمع الأكبر، وذلك من خلال تعلمهما بواسطة ابنائهما. وإذا نجح الأبوان فى ذلك فإن العائد يأتيهما بواسطة ممارسة الأبناء (التكامل) ونستطيع ان نجد مراحل التطور المختلفة للطفل من خلال علاقته بالأسرة.

٢- *رعاية الأطفال :*

فى هذا الجو المستقر عاطفيا والخالى من المنافسة الجنسية فان الأسرة تجد المجال للاهتمام برعاية أطفالها وتربيتهم وتجهيزهم فى المجتمع الأوسع وذلك عن طريق تأهيلهم لأن يكونوا هم أرباب أسر مستقلة. فالاسرة هى المدرسة الاولى التى يتعلم فيها الطفل العلاقات الانسانية وما تتطلبه من قوانين وقواعد وأدوات مثل اللغة والعادات والطقوس ولعلها تتلخص فى القيم الحضارية والدينية التى تغرس فى نفس الطفل. اذ ما زالت الأسرة هى الأساس الذى تنشأ فيه القيم الاخلاقية والدينية. وكلما

تقدم المجتمع وتعقدت المعلومات كلما أصبحت فى حاجة إلى تخصص مما أدى إلى نشأة المدارس والوسائل التربوية المكملة لها مثل الوسائل الاعلامية والنوادى ودور الحضانة. ومن هنا أصبح المجتمع الأكبر يمارس دور الأسرة أكثر فأكثر وان كان لم يحل محلها تماما. فما زال الطفل الذى كان يوما هو مركز كون يدور حوله ويشمل أسرته يحتاج إلى استعادة هذا الشعور البدائى والذى يجده من خلال انتمائه إلى أسرة تشعره انه بالنسبة لها افضل من أى فرد آخر فى أى مركز يدورون فى فلكه بشكل ما.

٣- *المصالح الاقتصادية :*

اذا كانت الغريزة الجنسية قد نجحت فى جذب اثنين لفترة قصيرة والعلاقة العاطفية نجحت فى اطالة هذه المدة وانجاب طفل سويا قد زود هذه المدة لتشمل على الأقل الفترة الحرجة التى يحتاج فيها الطفل إلى رعاية مستقرة من أبويه فان المصالح الاقتصادية المشتركة تضفى جانبا آخر من الاستقرار إلى العلاقة الأسرية فلا شك ان مشاركة رجل وامرأة وأطفال فى مسكن واحد ومأكل واحد مع توزيع الأعمال بينهم هى وسيلة اكثر اقتصادا مما لو كان كل فرد يحيا بمفرده. ولو أخذنا فى الاعتبار أن الطفل وما ينفق من أجل تربيته لهو فى النهاية يمثل عملية ادخار للابوين يأتيهما عائدها حينما يتقدم بهما السن ويكون عائلهما وحاميهما هو الطفل الذى أصبح بفضل تربيتهما له راشدا منتجا.

مرة أخرى فان المجتمع يأخذ هذا الدور من الأسرة فالحكومات تكفل المعاشات للمسنين علاوة على أنها تتكفل بتعليم الأبناء إلى حد كبير. أى أن الأسرة ككيان

رأسمالى منفصل أصبحت تتجه نحو الاشتراك مع المجتمع فى الملكية والانفاق وبالتالى فانها تتخلى عن بعض سلطانها على افرادها إلى المجتمع الذى أصبح بواسطة قوانينه ينظم العلاقات بين أفراد الأسرة الواحدة.

الأسرة والمجتمع:

إذا كانت الأسرة هى البنيان الأساسى للمجتمع بل هى مجتمع مصغر فى حد ذاته مستقل وفعال ومؤثر على المجتمع بقدر ما يتأثر به وبين أن يكون مجرد افراز لهذا المجتمع أو مجرد ظاهرة سلبية تعكس ما يدور بالمجتمع الأكبر. الا أن هذين النقيضين اذا ما انحرفا فانهما يؤديان إلى أنماط مريضة. فالأسرة المتطرفة فى استقلالها والتى ترفض التآثر بالمجتمع الذى توجد فيه تنتهى بالعزلة عن المجتمع بالتالى تفقد فعاليتها الحقيقية. بينما النقيض الآخر نجده الأسرة الشديدة التوافق مع المجتمع والتى لا تعدو ان تكون مرآة لما يدور فيه هى الاخرى تفقد فعاليتها واستقلالها على السواء ففى الحالة الاولى قد نجد الاسرة التى تعيش فى مجتمع غريب عنها (كأسر المهاجرين مثلا) فترفض تقاليده تماما وتتمسك بتقاليدها تنتهى بالعزلة وينشأ الأبناء غير متوافقين مع مجتمعهم الجديد، أما اذا نجحوا فى التوافق فهم يجدون أنفسهم فى عزلة عن أسرهم. وعلى العكس نجد أسرة أخرى (من المهاجرين أيضا كمثل) تتخلى تماما عن تراثها وتقاليدها وتسعى للاندماج مع المجتمع الجديد ولكن الثمن الذى تدفعه هو درجة من التشويه والقتل لهويتها وارتباطاتها الحقيقية. وفى الوسط نجد الاسرة التى تسعى للحفاظ على تقاليدها فى المجتمع

الجديد دون أن تترك ذلك يعرضها للعزلة فممارسها بدرجة من المرونة وتتفاعل مع المجتمع الاوسع فتتأثر به بالاضافة إلى ذلك قد تؤثر عليه.

والاسرة اذن تتشابه مع الفرد فى نموها وتطورها وفى سعيها للتكيف مع المجتمع الأوسع قد تسعى مثلا إلى تكوين علاقة ألفة معه الا أن هذه الألفة كمثيلتها فى الفرد لا تكتمل الا بعد أن تتكون الهوية وليس قبلها والا أصبحت مجرد علاقة اعتمادية أو كفلية ومن جانب آخر فان الاسرة التى ترفض التآلف مع المجتمع تشبه الفرد الذى يتوقف عند مرحلة الهوية مثلا ويصر على العزلة وعدم الزواج فى سبيل الحفاظ على هويته (الهشة).

الأسرة والطفل :

ان موقف الاسرة من الطفل (وهو أساسا موقف الأبوين) يتراوح بين القبول التام والرفض التام. وبين هذا وذاك درجات اعتاد العلماء تقسيمها بطريقة وصفية. ومن منطلق مفهومنا للصحة النفسية سوف نعيد صياغته هنا بالنسبة لموقف الاسرة بين نقيضى القبول والرفض.

ان القبول الكامل لكيان من جانب كيان آخر يعنى علاقة كيانين مكتملين ومستقلين.

واذا أردنا تطبيق ذلك على الأسرة لافترضنا أن الكيانين المعنيين – أى الأسرة فى مقابل الطفل – غير متكافئين اذا أن أحدهما يعتمد على الآخر. الا أن هناك فرقا بين الاعتمادية المبنية على واقع وهو واقع يشمل التكوين النفسى للطفل وبين الاعتمادية المرضية التى لا تخدم غرض التكيف انما تعبر عن احتياجات طفلية وغير مشبعة لاحد الطرفين أو كليهما.

أى أن هناك تكافؤ ومساواة طالما أننا نقبل أن جزءا من واقع الطفل هو احتياجه الحقيقى لأبويه وقبول هذا الواقع هو قبول للطفل ككيان متكافىء ومتساو.

واذا قبلنا أن القبول لكيان آخر لا يأتى الا من منطلق قبول الكيان لذاته أى ان مالك الشيء هو القادر على اعطائه فان الاسرة التى تستطيع ان تتقبل الطفل ككيان لذاته هى الأسرة التى تتقبل ذاتها ككيان أى انها قد حققت هويتها ازاء المجتمع ومارست درجة من النجاح فى التوافق معه والمساهمة فى تكوينه وانها مشبعة فى محاولات وجودها المختلفة بحيث لا تعوض عن نقصها فى الخارج بواسطة استخدام صغارها.

بالعودة مرة أخرى إلى مفاهيم الصحة النفسية المبنية على مبادىء التحليل النفسى فاننا نستطيع أن نقول أن تلك الأسرة هى أسرة تنمو وتتطور مع احتفاظها بدرجة من التكيف وهى تمارس رغباتها بحد أدنى من الصراع بين الأضداد فيه لا تكبت غريزة لحساب أخرى وتستطيع التعبير عن الجنس والعدوان بطرق مقبولة اجتماعيا أى دون صراع شديد بين الغرائز والانا الاعلى وبالتالى فهى تفاعل كامل مع أفرادها مثلما هى فى تفاعل كامل مع باقى المجتمع.

مثل هذه الأسرة تستطيع ممارسة القبول التام acceptance تجاه أبنائها فهى من حيث أنها لا تخاف الغرائز العدوانية لن تتردد فى وضع الحدود والعقوبات ازاء سلوك الطفل غير المنضبط فتساهم بذلك منذ وقت مبكر فى ارساء السلوك الاجتماعى وهى من حيث أنها لا تخاف الجنس فهى لن تخاف الاقتراب من اطفالها ولن تخجلهم من وظائفهم الجسدية. فالغرائز هما فى حالة اندماج fusion وتجد التعبير تجاه موضوع object - related وليست محاولة للداخل فى صورة نرجسية أو ما زوحية.

اذا انتقلنا الى النقيض الآخر وهو حالة الرفض rejection من جانب الاسرة للطفل فاننا من نفس المنطلقات النظرية نجد هذه الأسرة تمارس الحد الأدنى من النمو والتطور مع حد أدنى من التكيف وهى فى حالة صراع مع الهيئة وصراع بين الغرائز والانا الاعلى وبين الغرائز وبعضها أى أن الغرائز فى حالة عدم اندماج diffuse. والعلاقة بالموضوع محدودة أو منعدمة. لو ترجمنا هذه المفاهيم عمليا فسوف نجدها أسرة منعزلة عن باقى المجتمع وفى عزلتها فهى تتحجر وتكف عن التطور الا أنها أيضا تجد نفسها فى صراع مع المجتمع أى تكف عن التكيف أيضا. وهى تخاف من التعبير ولذا فان غرائزها محولة إلى الداخل، ففى الحالة القصوى لمثل هذا الانعزال فسوف نجد أن أفراد الاسرة يمارسون هذا الانعزال بينهم فلا توجد علاقات حقيقية أو حميمة بينهم ومن ناحية الطفل فهم يهملونه اهمالا تاما فيتركونه بدون رعاية أساسية أو حماية. وقد يبدأ رفض الطفل منذ البداية فى أن يكون الحمل به غير مرغوب أو اذا جاء الحمل فقد نبذل المحاولات لاجهاضه واذا ولد فيهمل، كأن يهجراه أو يتركاه لملجأ او يبقياه ولكن بدون رعاية تذكر.

كما أن الرفض قد يأتى نتيجة مرض أو انحراف فى الأسرة ذاتها كأن يكون أحد الأبوين أو كلاهما ذهانيا أو متخلفا عقليا أو مفرطا فى الادمان. وقد يكون مصدر الرفض نابعا من الطفل ذاته فقد يولد مشوها أو متخلفا عقليا مما يثير الغضب المباشر أو فعله الرديد (فى صورة الشعور بالذنب والافراط فى الحماية أو غير ذلك من جانب الأبوين).

وبين هذين النقيضين من القبول التام والرفض التام نستطيع أن نتدرج ومرة أخرى من منطلقات التحليل النفسى يمكن أن نرى التدرج فى تغليب غريزة على أخرى فى مواجهة الطفل. فالانحراف الى اليمين (جزافا) قد يمثل تغلب الغريزة الجنسية فى التعبير الظاهر على أن يصاحب هذا تغليب الغريزة العدوانية على المستوى اللا

شعورى والنتيجة أن نجد الرفض مقنعا فى صورة الافراط فى الحب بدرجاته المختلفة منها نمط الأسرة المفرطة فى الحماية over - protective فتبالغ فى حماية الطفل وتخشى عليه من العالم الخارجي وتنمي النزعات الاعتمادية فيه. فالأسرة تعامل الطفل ظاهريا بما يبدو أنه حب ورعاية زائدة بغرض الحفاظ على الطفل أو قد تفرط فى تربيته وبث القيم الصارمة فيه أيضا بهدف مصلحته ولكن باطن هذه المعاملة الرحيمة ظاهريا ليس الا قسوة . والحب هنا ليس الا فعلا رديدا لكره كامن وان كان يعتبر درجة أرقى فى التعبير عن الكره من الكره المباشر أو الرفض التام للطفل.

كما ان هناك درجات مختلفة فى التعبير عن الحب تمتد من التعبير المباشر عن الغريزة الجنسية إلى التغبير المتسامى عنها. وهنا تظهر أنماط الأسر المفرطة فى الاغواء over - seductive وقد يكون هذا الاغواء مباشرا الى درجة حدوث العلاقات الجنسية الصريحة غالبا بين الأب وبناته أو بين الأم وأبنائها (وهو أقل انتشارا). أو قد ينقل الاغراء المتبادل والممارسة الى الاشقاء (وهو الاكثر انتشارا) أو قد يرتبط هذا النمط السابق (المفرط فى الحماية). ولذلك بحكم أن الأسرة التى تمنع أبناءها من الاختلاط بالغير مع وجود اغواء بين أفراد الأسرة الواحدة انما تدفع أبناءها الى ممارسة رغباتهم داخل الأسرة. وهناك درجات أقل من الاغواء لا تصل الى العلاقات الجنسية المباشرة ولكنها تثير تلك الشهوات دون اشباعها وتؤدى الى التعلق الشديد بين أفراد الأسرة الواحدة لدرجة خلق صعوبة فى تكوين علاقات عاطفية حميمة خارج الأسرة فيما بعد وأهمها بالطبع الزواج بالنسبة للأبناء ولذا فان هؤلاء الأطفال حينما ينضجون يجدون صعوبة فى الاستقرار فى زواجهم فيهرعون الى أسرهم الأصلية عند كل اختلاف.. فى مثل هذا الاغواء الجنسى والعاطفى تتراوح أشكال التعبير من التلامس الجسدى المبالغ فيه كميا وكيفيا كالافراط فى التقبيل والاحضان خاصة بعد سن المراهقة أو مجرد الافراط فى الصداقة والتآلف بين أفراد

الأسرة الواحدة على حساب تكوين العلاقات الخارجية. كما أن الاغواء ليس بالضرورة مرتبطا بالاعضاء الجنسية التناسلية، وانما قد يرتكز على أعضاء أخرى مثل الفم وهنا يأخذ الاغواء صورة المبالغة فى الرضاعة كالتأخير فى النظام. أو ارضاع الطفل فى غياب غرض اطعامه ولكن بغرض تهدئته اواسكاته. وكذلك الاغواء الشرجى الذى يأخذ صورة الافراط فى الحقن الشرجية والمبالغة فى الاصرار على تنظيف الشرج مع مساعدة الطفل على ذلك رغم قدرة الطفل على الاعتماد على نفسه. والاغواء الجلدى قد يأخذ صورة الافراط فى الاستحمام والتنظيف واللمس والتدليك أوالدغدغة والعض والتقبيل المفرط. والاغواء بالنظر قد يأخذ صورة ممارسة الجنس بين الأبوين فى وجود الأطفال أو درجات أقل وضوحا من ذلك كالمغازلة المفرطة.

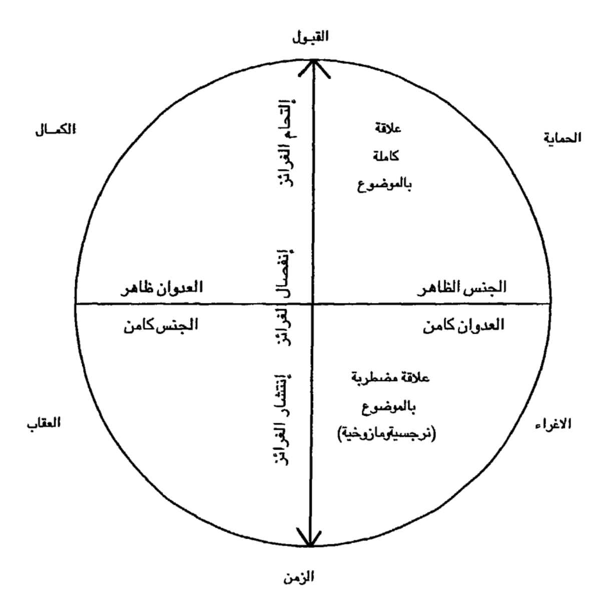
وهنا لابد ان نأخذ فى الاعتبار ان الافعال الرديدة قد تأتى بنفس النتيجة مثل الافعال المباشرة. فالافراط فى اخفاء الجنس بصوره المختلفة وحرمان الطفل من اللمس والتقبيل من جانب الابوين بصورة مبالغ فيها (كما يحدث فى الحضارات الغربية) قد يؤدى الى صورة عكسية فالطفل يخاف التعبير الجنسى تجاه من يحب ويقصر الجنس على الشهوات الجسدية البحتة، أى هذا الاغواء بالسالب قد يؤدى الى أن يمارس الطفل غرائزه فقط مع من لا يكون معهم علاقة عاطفيه ندية كأن يقصر الجنس على المومسات.. وهنا أيضا فان ما يبدو على السطح على أنه حب (وان كان جنسيا) تجاه الطفل ما هو الا ممارسة غير مباشرة (شعورية) للعدوان فهو اعتداء على الطفل وهتك له.

واذا انحرفنا على الجانب الآخر (الايسر جزافا) نستطيع أن نفرض عليهم الغريزة العدوانية ظاهريا مع كبت الغريزة الجنسية والتعبير عنها لاشعوريا. فالعدوان على الطفل قد يبدأ بالفعل الرديد للنزعات العدوانية بواسطة ابداء نزعات معاكسة من الافراط فى الرعاية.. وتبدأ بنمط يشبه المقال السابق وهو الافراط فى الحماية ولكنه

هنا قد يأخذ صورة الافراط فى الكمال perfectionistic فباسم رعاية الطفل وتربيته وحمايته من الانحراف فان الاسرة تمارس عليه درجات مختلفة من القهر والقمع والكبت، فلا يسمح له بأية درجة من التعبير المباشر عن غرائزه فاذا ارتفع صوته أو زادت حركته أو مارس فضوله وفوضويته فانه يعنف وينهر حتى يصبح طفلا مطيعا أو خاضعا أو على أحسن الأحوال طفلا " مثاليا " ولكنه كالالة خال من التلقائية ومليء بالخوف والعدوان المكبوت. ومرة أخرى فان الذى يبدو من هذا الاخضاع الظاهرى لطفل على انه تعبير عن العدوان تجاهه فان الغريزة الجنسية تجد التعبير المقنع لها فى أن الطفل لن يحصل على الحب الا اذا كان خاضعا أو مؤدبا (على أحسن الفروض) وبواسطة هذا الخضوع فهو يزداد تعلقا بأسرته ويخاف الانحراف عن قيمها أو حتى ممارسة وجوده المستقل. فهذا الطفل حينما ينمو يخاف الاستقلال برأيه عن أسرته ويصبح شديد الارتباط بقيمها وكثيرا ما يلجأ اليها فى القرارات الهامة.

واذا انتقلنا درجة أخرى على مدى متصل التعبير الظاهرى عن العدوان فسوف نجد نمط الاسرة المفرطة فى العقاب over - punitive. فبدلا من الاكتفاء بغرس الكمال فى الاطفال وطلب مالا يستطاع منهم فان هذه الاسرة تبالغ فى هذا الطلب وتمارس قهرها للطفل بطريقة مباشرة تختلف فى الدرجة. فقد تبدأ بالشدة على المستوى المعنوى فتعاقب الطفل عند كل مخالفة بأن تحرمه من الحب والعطف ثم تتدرج بأن تمارس تجاهه الحرمان من المزايا المختلفة التى كان يحصل عليها (مثل اللعب والفسحة) ثم تتدرج إلى حرمانه من الاساسيات مثل الطعام أو الحركة (بحبسه مثلا) وقد يكون العقاب جسديا بطريقة مباشرة فى صورة الضرب وقد يبدأ بالضرب المقنن والمحكوم مثل الضرب على الايادى أو المؤخرة أو القدمين (الفلكة) ويتدرج الى الضرب العشوائى الذى يؤدى الى اصابات وأذى جسدى قد يصل فى بعض الأحيان الى درجة القتل.

ومرة أخرى فان الغريزة الجنسية ليست منعدمة ولكنها لا شعورية. ولعل المثل القائل بأن (ضرب الحبيب زى أكل الزبيب) يشير الى هذه الحقيقية فان عقاب الاباء لابنائهم كثيرا ما يحوى رغبة جنسية مكبوتة أو قد يكون فعلا رديدا لها. ولعل الضرب على المؤخرة الذى كان (ومازال) منتشرا فى الحضارات الغربية كثير ما يثير الرغبات الجنسية الشرجية والتى تنمى الجنسية المثلية فى الأولاد.



شكل يبين التدرج فى انماط الأسرة بين القبول والرفض

التكوين الأسرى :

ان المواقف الأسرية التى ذكرناها تعبر أساسا عن التكوين النفسى للآباء الا أن هناك عوامل فى تكوين الأسرة تؤدى دورها فى حد ذاته بغض النظر عن تلك العناصر الشخصية وتلك العوامل خاصة بالشكل العام للاسرة وسوف نعرض بعض هذه الأشكال :

الأسرة غير المكتملة :

هى التى يقتصر تكوينها على الزوج والزوجة بدون أطفال، ولعل أثر مثل هذه الأسرة على نفسية الاطفال يظهر فى حالة وجود أقارب لهم أطفال اذ أن موقف تلك الأسرة من هؤلاء قد يتراوح ما بين الاعراض عن الأطفال وتجنبهم أو المبالغة فى رعايتهم والاقبال عليهم، وحالة أخرى تؤثر فى تلك الأسرة على الطفل هى حينما يقرران التبنى. وقد يكون هذا القرار مبنيا على انعدام القدرة على الانجاب أو انعدام الرغبة فى الحمل (لتجنب مخاطر صحية أو أمراض موروثة مثلا). والآثار التى تنتج عن هذا الوضع تتوقف على موقف الاباء وعلى قدرتهم على مصارحة الطفل المتبنى من عدمه وكذلك على البيئة الجديدة (أقارب الاباء الجدد) التى يوجد فيها، وعما اذا كان الطفل مولودا شرعيا أو لا يعرف له أصل، اذ أن هناك بعض حالات التبنى تحدث بين المعارف أو الأقارب حينما تكون هناك أسرة خصبة ولديها أطفال عديدون وأخرى ليس لديها أطفال، وعنصرا آخر هو سن الطفل عند التبنى وهنا تدخل عوامل الانتماء الطبقى الاجتماعي الاصلى للطفل بالمقارنة مع أسرته الجديدة، ولعل أهم المشاكل التى قد تنشأ فى حالات التبنى هذه احساس الطفل بأن أسرته الحقيقية رفضته أو أن أسرته الحقيقية رفضته أو أن أسرته بالتبنى لا تريده باخلاص. وقد تقل هذه الصعوبة

فى حالة وجود أشقاء آخرين بالتبنى علاوة بالطبع على معاملة الأسرة له.

الا أن العكس أحيانا قد يحدث. اذ انه حتى فى حالة الاطفال غير المتبنين فاننا نستطيع أن نجد تخيلا لديهم بأنهم ليسوا أبناء حقيقيين لابائهم وأنهم التقطوا. واحيانا قد يعتقدون أنهم ملك للانسانية كلها وليسوا ملكا لأبويهم فقط. ولعل التاريخ والاساطير مليئة بما يغذى هذه التخييلات اذ ان كثيرا من الانبياء والابطال بشكل أو آخر لم يترعرعوا فى ظل أبويهما تماما.

وهناك وضع مقارب لهذه الحالة حينما يكون أحد الابوين قد انفصل عن طفله اما بسبب الوفاة أو المرض أو الطلاق أو الهجرة ويستمر الطفل مع الآخر الذى قد يتزوج أو تتزوج مرة أخرى وينجبان أطفالا آخرين. وهنا مرة أخرى قد ينشأ لدى الطفل الاحساس بأن الاب الذى تركه انما فعل ذلك لانه لا يرغبه وقد يضفى عليه (أو عليها) صفات غير واقعة اما بالخير المبالغ فيه أو بالشر المبالغ فيه بينما قد يضفى المعاكسة على العضو الجديد فى الاسرة.

الاسرة الصغيرة :

أن يكون الانجاب محدودا بطفل واحد - اما لاسباب خارجة عن ارادة الوالدين (قلة الخصوبة أو المرض أو السن) أو لرغبتها فى عدم الإنجاب وهو أمر أصبح أكثر يسرا مع إنتشار وسائل منع الحمل الحديثة - وفى هذه الحالة تنشأ مشاكل الطفل الوحيد فهو لم يأخذ فرصة كافية لتعلم المشاركة والتغلب على إحساسه بأنه مركز لإهتمام والديه. بل ان خلعه عن عرشه الاساسى حينما كان مركز إهتمام امه لم يأت الا على يد ابيه وهو منافس لاحيلة له أمامه، ومع إفتقاره للمنافسة مع أطفال اخرين فهو أيضا يتعلم أن يحصل على حاجاته دون جهد يذكر.

وقد يتخذ الأبوان منه موقف الحماية المفرطة أو التقويم المفرط over - punitive أو التساهل والدلال المفرط over - indulgent وهذا سوف يتوقف بالطبع على عوامل أخرى منها أسباب كونه طفلا وحيدا. ومما قد يضيف إلى مثل هذا الإفراط فى العواطف وردود الفعل أن يكون الطفل قد أتى رغما عنهم (مثلا فى حالات الزواج الإضطرارى وخاصة بسبب حدوث الحمل قبل الزواج) أو قد يكون الحمل حدث بعد محاولات عديدة وربما لم تكتمل أو إكتملت ولم يعمر الطفل السابق. أو يكون الأبوان قد تقدما فى السن ولايريدان أو يستطيعان الإنجاب بعد ذلك.

وإذا زاد حجم الأسرة عن ذلك قليلا فأن مسألة إكتمالها تتوقف عنا إذا كان الطفلان من جنس واحد أو جنسين علاوة على موقف الأبوين والمجتمع بصفة عامة من جنس الأبناء.. فهناك بعض المجتمعات أو الفئات الإجتماعية وخاصة تلك التى تعطى قيمة أكبر للذكور - تفضل إنجاب الذكور أو على الأقل أن يكون الطفل الأول ذكرا.

وقد توجد هذه الرغبة فى إنجاب طفل من جنس ما لدى الأبوين وقد تكون معلنة أو كامنة فإذا ماجاء الطفل المنتظر عسى ماكان مطلوبا فإن ذلك قد يلون علاقة الأبوين بالطفل بشكل أو آخر وأهمها أن يعاملا الطفل كما لو كان من الجنس الذى يتمنياه فيتلون الطفل بالتالى بصفات الجنس المعاكس.

وفى هذا الحجم من الأسرة تنشأ مشكلة الترتيب فى الأسرة فهناك مشكلة الطفل الأكبر ومشكلة الطفل الأصغر.. فالطفل الأكبر ولد فى وقت لم يكن له منافس (بمعنى أن يكون مقاربا له فى السن والوضع. اذان الأب يعتبر منافسا إلى حد ما) وعلى حساب ميعاد ولادة الطفل الذى يعده فأنه يستمتع بهذا الشعور لفترة تطول أو تقصر، فإذا كان ميلاد الطفل الثانى مقاربا فأنه من يشاركه فيه. واذا كان ميلاد الطفل الثانى يأتى بعد فترة طويلة فإنه قد يتعود على وضع الطفل الوحيد ولم يسعد ويشعر

بالتهديد من هذا الزائر الصغير. وإذا كان مناسبا (لعل مدة ثلاث سنوات تقريبا هى الرقم المناسب) فإنه يستطيع أن يجمع بين إحساسه بالقيمة لدى والديه وإحساسه بالمشاركة مع شقيقه إلا أنه سوف تبقى لديه سمة مميزة وهو أنه الأول والأكبر والأفضل وهو وضع يميل إلى التمسك به بإستمرار فينشأ بميول محافظة (سياسيا واجتماعيا). اما الطفل الأصغر فقد ولد أصلا من كانت له المكانه الأولى لدى والديه وعليه هو أن يلحق به فهو بالتالى دائم التطلع ودائم التمرد على من هو أكبر منه ويميل إلى اللحاق بمن هو أفضل منه فيسمى بالجهد الطموح إلى التفوق، الا أنه بحكم وضعه كطفل صغير (آخر العنقود) فهو يملك مكانة خاصة لدى الأسرة ويحصل على حقوقه لمجرد أنه الأصغر والأضعف، كما أن إنعدام وجود أطفال أصغر منه فى حاجة إلى رعاية خاصة يجعل والديه يركزان إهتمامهما عليه فى رغبتهما فى الحفاظ على شبابهما فيسعيان للحفاظ على طفولته أكبر قدر يمكن ولعل هذا يدفعه فيما بعد أن يعتمد إعتقادا راسخا أنها فى الأمد الطويل فى صفة فهو كطفل أصغر ومستضعف ليس عليه إلا أن ينتظر وسوف تعود الأمور إلى نصابها ويصبح قويا وكبيرا مثل أخيه الأكبر. ولذا قد نجده يميل إلى الفكر التقدمى والثورى (سياسيا وإجتماعيا) فيما بعد.

أما الأطفال الذين يأتون فى الوسط فهم يعيشون المشكلة من الجانبين فعليهم ممارسة دور الطفل الأصغر فى مقابل الشقيق وبعد ميلاد الطفل الأصغر فعليهم ممارسة دور الطفل الأكبر معه فهم بين غيرة الشقيق الأكبر منهم ومحاولاته لدفعهم إلى الخلف وأبعادهم عن عرشه وبين الحسد الشقيق الأصغر لهم ومحاولاته خلعهم من مكانتهم.. وسط هذا الإحباط المزدوج فإنهم يتيقنون أن لا مكان خاصا لهم تحت الشمس إلا بالكد والعرق ولعلهم لهذا يفضلون وسط الأمور على المستوى الإجتماعى والسياسى فلا هم يريدون الحفاظ على الوضع القائم كما هو لانهم ليسوا على قمته (ليسوا فى وضع الشقيق الأكبر) ولاهم يريدون تغييره بالتمرد الصريح والإاسوف

يتعرضون لأن يخلعهم من دونهم (الشقيق الأصغر) من مكانتهم التى حصلوا عليها بالجهد والعرق.

فهرس

عن الكتاب

كل أسرة تحاول أن تفهم طفلها :

لأن الحب هو الإحساس الطبيعي الذى يملؤنا عندما يكون لنا أبناء.

لكن الحب يصطدم عندنا دائما بعقبة أسمها «عدم الفهم».

نحن نثور أحيانا .

نحن نقف حيارى أمام الأبناء فى أحيان كثيرة.

أكثر من ذلك.

نحن نحتار فى فهم أنفسنا وأدوارنا المختلفة فى الحياة.

نحن لاندعى أن صفحات هذا الكتاب تضم الطرق المثلى لمواجهة كل مشاكل الحياة، أو أنه كتاب يملك الحلول الجاهزة لكل مشكلة من مشكلات تربية الأبناء.. لكن نقول أن هذا الكتاب هو محاولة علمية مخلصة تلقى ضوءا جديدا على أعماق الأنسان أنه كتاب يساعدك أن تفكر جيدا لتفهم أطفالك ونفسك.

